عبد الرحمان قارف

مولاي السلطان

عندما التقيت صلاح الدين الأيوبي

عبد الرحمان قارف

مولايَ السُّلطان

عندما التقيتُ صلاحَ الدِّينِ الأيُّوبي

1443هـ/2022م

مولايَ السُّلطان

عندما التقيتُ صلاحَ الدّينِ الأيُّوبي

توضيح

”

إنَّ هذا الحديث الذي دار بيني و بين مولاي السلطان صلاح الدين كان بعد فتح بيت الـمَقدس بعامَين، أي في عام (585هـ)... و قد تضمَّن بيانَ أهمِّ الأحداث و أبرزِ الوقائع ابتداءً مِن تولي السلطان الوزارةَ بالبلاد المصرية و انتهاءً بفتحه القدس الشريف، فكان لقائي به بصفته مؤرِّخًا حاكيًا أكثر منه سلطانًا مَلِكًا... قدَّس اللهُ روحَه!

“

الفضلُ ما شهِدَت به الأعداءُ

- «كُلُّ قوَّة المسيحية المُركَّزة في الحملة الصليبية الثالثة لم تستطِع أن تَهُزَّ سُلطةَ صلاحِ الدِّين».

(ستانلي بول)

- «لَمْ يحدُث أنْ تعلَّقَت مُخيِّلةُ الأوروبيين بشَخصٍ مُسلِمٍ قْدرَ تعلُّقِها بصلاح الدِّين».

(كارولين هيلينبراند)

- «لقد أجمعَت الآراءُ على أنَّ صلاحَ الدِّينِ كانَ أنبَلَ مَن اشترَكَ في الحروبِ الصليبية».

(وِل ديورانت)

- «يظهَرُ أنَّ أخلاقَ صلاحِ الدِّينِ الأيوبي و حياته التي انطوَت على البطولَة قد أحدَثَت في أذهان المسيحيين في عصرِه تأثيرًا سِحريًّا خاصًّا.. حتى إنَّ نفرًا مِن فُرسان المسيحيين قد بلَغَ مِن قوَّة انجِذابِهم إليه أنْ هجَروا ديانتَهُم المسيحية، و هجروا قومَهُم و انضمُّوا إلى المُسلمين».

(توماس أرنولد)

فجأةً.. و دون أدنى شعورٍ مِنِّي بانتقالي إلى واقعٍ غير الذي أعرفُهُ، و عالَمٍ سوى الذي أُعاصرُهُ.. وجدتُني في وسط مُعسكرٍ عظيمٍ للمقاتلين و الفرسان، و كانوا ذوي أزياء عسكرية تقليدية بيضاء مثل تلك التي نتصوَّرُها في المعارك و الحروب خلال التاريخ الوسيط، و يرتدون على رؤوسهم القلانس الحديدية الصفراء المُميَّزة مكشوفةً بغير عمائم و ليس من تحتها مغافر، و يربطون سيوفهم بأحزمةٍ تُحيط بالخواصر، و بعضُهم يمتطي الخيول و الأفراس، و البعضُ الآخر واقِفٌ يُقيم الصفوف، و الجميع كانوا و كأنَّهم على موعدٍ مع معمعةٍ ضارية ضد الأعداء.. كانت تتخلَّلُ صفوفَهُم آلاتُ الحرب الثقيلة من مَجانيق و مَدافِع و غيرها، و هي ليست إلا من الطراز الذي عُرِفَت به العصور الوسطى، و رغم ذلك لم يكن في العالَم كلِّهِ أكثر تطوراً و حداثةً منها إلى ذلك الحين..

لم أكن أدرِ على وجه اليقين ما الذي حصل لي و تحوَّل بي إلى تلك البقعة مِن الأرض أين يتواجد ذلك التجمُّع العسكري المَهيب، فقد كنتُ حاضراً في زمني الذي وُلِدتُ فيه و شبَبْت.. ثم تتساءلون أيَّ زمنٍ أقصد؟!.. إنني أقصد زمنَ سايكس بيكو و التطبيع و خيانة الحكام و ملوك الطوائف الجُدُد!..أقصد الزمنَ الذي تقرأون فيه هذه السطور الآن!

فما الذي انتقل بي إلى تلك البقعة و ذلك الزمن الغابِر؟!.. لم أدرِ!

و لكنَّ الذي دَرَيْتُه بعدها هو أنَّ تلك البقعة هي مِن بلاد الشام.. و بالتحديد في فلسطين.. و بدقة التحديد في بيت المَقدس!

فلعمري كم هي رائعة الأجواءُ المَقدسية حيثُ تطمئنُّ النفوس، و تستروِحُ الخواطر، و تنشِقُ الأنوفُ عبيرَ الأزهار، و تطربُ المَسامعُ لتغريد الأطيار، و تلذُّ الأعينُ لمناظر الجِنان تجري من تحتها الأنهار!!.. إنه بيتُ المَقدس الذي لطالما فتَنَ الأممَ قديماً و حديثاً، و جعل

مِن نفسِه عروسًا طاهِرةً تتسابَق للظَّفر بها تلك الأممُ و تتصارَع؛ على أنَّ الأمة الوحيدة التي استحقَّتها هي أمة الـمُسلمين، و هي الجديرةُ بأن تصونَها و تحفظَها كما تُصانُ الجوهرةُ و تُحفَظ، و أن تُقمِّصها قميصَ الإسلامِ النَّقي الذي به يكمُلُ جمالُها و رونَقُها، و مِن دونه تكون في حالٍ يُرثى لها لا تسُرُّ الناظرين إليها.. يشهدُ بذلك حالُها في زمن سايكس بيكو!!

كنتُ أمام خيمةٍ كبيرةٍ يُحيط بها جنودٌ يحرسونها من كلِّ جانب، و كان بداخلها من ظهروا لي أنَّهم الشيوخ العلماء و كبار رجال الدولة و الأمراء.. علمتُ من الوهلة الأولى أنَّ الذي يجمعُهُم بها هو مَلِكُهُم و سُلطانُهُم، و هم يحترمونه و يُوقِّرونه للغاية كما بدا لي.

و بعبارة واحدة.. إنَّ كلَّ الـمَشاهد و الأجواء كانت توحي إليَّ بأنني في زمـ..

نعم!.. إنني أعيش التاريخَ الجميلَ بكلِّ مشاهده و تفاصيله.. و رموزه و أبطاله..

لقد كنتُ حاضراً في زمن العزة و الكرامة.. في زمن الجهاد و الشرف.. في زمن العظماء و الـمجاهدين الكِبار.. في زمن نصرة الإسلام و الذود عن حِياضه!..

لقد كنتُ حاضِراً في زمن مولاي السلطان الملك الناصر.. قامِع الروافض العُبيديين و مطهِّر مصرَ من دنسِهِم.. و قاهر الكَفَرَة الصليبيين و مُنقِذ الأقصى من رجسِهِم.. صلاح الدين الأيوبي!

نعم!.. إنه ذلك الزمن الذي سَمَت فيه أمَّتنا بالجهاد حتى بلغنا به عنان السماء رِفعةً و سؤدداً، و زلزلنا أقدام أعداء الـمِلَّة و أرعبنا قلوبهم بصيحة الله أكبر العظيمة، لا بصيحة القومية الـمقيتة أو الوطنية الضيِّقة!.. و ظهر فيه مَن هو في صفوة ملوك التاريخ و قُوَّادِه: صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ ذلكم الرجل الذي أرانا الرحمةَ الإنسانية في أنبل صورها، و العدالة الإسلامية في أبهى مظاهرها.

إنه باختصار: زمنُ العزَّة و الرِّفعة و الشُّموخ!

كان لسان حالي يقول ساعتئذٍ: قد سئمتُ عيشَ الذلِّ و الهوان في زمن سايكس بيكو، و لم أقوَ على تَحمُّلَ مشاهدةَ إخوة الدِّين في الشرق و الغرب و هم يُسامون سوءَ العذاب، و يُفتَنون في دينهم و عقيدتهم عظيمَ الافتتان.. و كنتُ على امتعاضٍ مِن الحُكَّام الخونة الذين فَقَدوا شرفَهم كما تفقدُه البغيُّ الزَّانية، و باعوا ضمَائرَهم لأعدائهم صنيعَ كُلِّ عميلٍ خائن، و تاجروا بقضايا الأمة أخسَّ مُتاجَرة كما يفعل التاجرُ اللِّص، و «طبَّعُوا» مع إخوان القردة و الخنازير، و اصطفُّوا في صفِّهم ضد إخواننا المَغلوب عليهم من أهل فلسطين.. أما و قد رجع بي الزَّمنُ و حملني إلى ما قبل ثمانية قرونٍ و نصفٍ، فحيهلا بهذا الرجوع، و أجمِل به و أسعِد!!

قد كنتُ مُعرِضاً عن التقدُّمُ صوب الخيمة لمُقابلة مولاي السلطان بعد أن تملَّكتني الرَّهبةُ من ذلك.. كيف لا و هذا السلطان هو تلميذ المَلِكِ العادلِ الذي لَمْ يعرف التاريخُ مثيلاً له إلَّا ما ندَرَ: أعني نور الدين محمود زنكي..!

كيف لا و هو الذي دوَّخ جيوش الصليبين، و ارتعدت فرائصُ أمرائهم و ملوكهم رعباً منه..!

و هو الذي اجتثَّ جذور الرافضة العبيديين من أرض الكنانة مصر اجتثاثاً، و أدار إبرةَ البوصلة في الجامع الأزهر من ظُلُمات الرَّفض إلى أنوار السُّنَّة، فصارت مصرُ أرضاً سُنِّيَّةً خالِصةً تُرفع فيها راية الإسلام خفَّاقةً دون أن يشوبَها شيءٌ من الرَّفض و الزَّندقة..!

و هو الذي أحبَّهُ الجميع؛ البرُّ و الفاجر، و المسلم و الكافر، و الصغير و الكبير..!

و هو الذي لم يحزَن الناسُ لوفاة ملكٍ من الملوك كما حزنوا لوفاته هو..!

و قبل كلِّ ذلك فهو فاتحُ بيت المقدس بعد أكثر من تسعة عقود على سقوطه في أيدي الصليبيين! و ما أدراك ما بيت المقدس!!

و لكن في المقابل.. كان حبِّي لهذا السلطان و إعجابي به الشَّديدَيْن يدفعانني إلى مقابلته دفعاً.. فصرتُ أقدِّم رِجلاً و أؤخِّر أخرى!

حَدَث أنْ بدأ مَن بداخل الخيمة في الخروج منها واحداً تلو الآخر، و هنا علمتُ أنَّ السلطان سيكون وحيداً بمفرده، و أنَّ هذه هي فرصتي الأنسب لـمُقابلته و لقائه مِن دون تلعثمٍ و تلكُّؤٍ كما سيحصل لو تواجَدَت بِطانتُه بيننا.. فانطلقتُ مُهرولاً حتى اقتربتُ من مدخل الخيمة بعد أن تجاوزتُ صفوفَ الـجُند و تجمُّعاتهم الكثيفة وسط الـمُعسكر، فلم أَكَد أَصِلُ إلى مَدخلِها إلا و قد اعترضَني أحدُ حُرَّاس السلطان و منعني من الدخول، فأخبرته بأني أريد مقابلة السلطان و قلبي يخفق خفقاً خوفاً من رفض طلبي.. فما هو إلا أن أبلغَ الحارسُ السلطانَ خَبَرِي حتى أذِنَ له أن يسمح لي بالدخول.. فشعرتُ بسرورٍ و رهبةٍ في آنٍ واحد؛ سرورٌ بلقائه و رهبةٌ من شخصِهِ!

دخلتُ مُطأطأ الرأس تعظيمًا لهذا السلطان الكبير..

فحيَّيتُهُ بتحية الإسلام: السلام.. فردَّ علي:

- وعليكم السلام و رحمة الله.. أقبِلْ يا أخي فاجلس ها هنا!

«أخي»!!

تسمَّرتُ في مكاني على وقْعِ هذه الكلمة..

إنه لا يعرفني، و لم نلتقِ من قبل.. و مع ذلك ناداني بنداء الأخوة!

و ذلك الصوت الـجَهْوَري!.. ذلك الصوت يكفي أن يتلقَّفاه طَبْلا أذنَيْك حتى يُثير فيك الشعورَ بهيبة صاحِبِه و وقاره، و يعكسُ ما بداخله من قوة و صلابة!

و بينا أنا واقِفٌ متسمِّرٌ عند مدخل الخيمة إذ أعاد عليَّ السلطانُ الأمرَ بالجلوس حذوَه.. فنزلتُ تحت أمرِهِ و تقدَّمتُ نحوه ثم جلست حيث أشار لي.. و ما أن رفعت وجهي لأنظر إليه حتى رأيته ينظر إليَّ باسِماً، طليقَ الوجه، ينبثقُ منه نورٌ و كأنَّه وليٌّ من أولياء الله تعالى.. فأبصرتُهُ ذا لحيةٍ سوداءٍ يغزوها الشِّيب، و كانت إلى القِصَر أقربَ منها إلى الطول، و بوجهه آثارُ جروحٍ و نُدوبٍ لا ريب في أنَّ سببَها هو كثرةُ معاركه مع العدو، و يداه شثنتان غليظتان أحسب أنَّ ذلك لاتصالِهِما بالسيوف و الدروع غالب الأوقات؛ فإنه قد اضطُرَّ إلى أن يقضي أكثر عُمُرِه بين الحروب و الدِّماء؛ فبالله عليكم! أنَّى لتلك اليدَيْن الانفصال عن السيوف و الدروع و العدوُّ نازلٌ بأرضِ الإسلام ظُلماً و عُدواناً، و جنوده مُتَفَشُّون في سواحل الشام فُشُوَّ الطَّاعونِ؟!.

فلما رآني السلطان مُحدِّقاً النظرَ فيه متأمِّلاً تعابيرَ عينيه بادرني بالحديث مُتسائلاً عن حالي و عافيتي، فأجبته عن ذلك بما يلزم أن أجيبه.. ثم قلتُ له:

- لقد ذاع صيتُكم مولاي السلطان بيننا معاشر أهل الإسلام ذياعاً واسعاً، و اشتهر عنكم كلَّ خيرٍ و حسنٍ و بِرٍّ في الآفاق، و عَلِم القاصي قبل الداني بجهدكم العظيم في سبيل نصرة دين الله، و جهاد الافرنج عُبَّاد الصلبان الذين غزوا بلادَ الشام، و الحمد لله الذي استنقذَ بكم بيتَ المقدس مِن أيديهم بعد أن استنقذ بكم مِصرَ مِن أيدي الشيعة العُبَيديين الزنادقة، فأقمتُم دولةَ الإسلام أعظمَ إقامةٍ، و نصرتُم المَظلومين و اقتَصَصْتُم لهم من الظَّالِمين، و نشرتم العدلَ بين الناس و الفضيلةَ بعد أن أزلتم الظلمَ و الرَّذيلة .. و هأنذا أبتغي أن تُحدِّثني عن أول أمركم و ابتدائه إلى غاية ما وصل إليه اليوم؛ فسماعي ذلك مِن حضرتِكُم يدرأُ عنِّي الأخبارَ الزَّائفة و الكاذبة التي تُنسَبُ إليكم و توضَع عليكم مِن كُلِّ جاهِل و مُبْغِض و حاقِد؟!

اعتدل السُّلطانُ في الجلوس و استوى، ثم قالَ مِن دون مقدِّمات أو مُمهِّدات لكلامِه:

- إنَّك يا أخي تعلمُ خَبَرَ الإفرنج الكُفار لـما غزوا سواحلَ الشَّامِ، و عَدَوا على البيتِ الـمُقدَّس حتى أخذوه قبل تسعين عاما، فجاسوا خلالَه و قتَّلوا أهلَه قتْلَ الدواب و البهائم، و ساموا الناسَ بالعذاب كما تُسامُ السوائم، ثم انتشروا في بلاد الإسلام كأسراب الجراد، و كلما نزلوا بلداً عاثوا بين أزِقته و نكَّلوا بمَن فيه مِنَ العباد، و أكثروا فيه الفساد، و عتوا عتوَّ ثمودَ و عاد، فلم يُمكَّن لأمراء تلك البلاد أن يصدُّوهم أو يكسروا شوكهم، و ما ذاك إلا لِـمَرَضِ قلوبهم و خَواءِ نفوسهم مِن تنفيذ أوامر ربِّهم و اجتناب نواهيه، إلا القليل منهم ممن رأى اللهُ تعالى في قلوبهم الإخلاصَ و التجرُّد في جهاد الكُفار و منابذتِهم، فنصرَهَم في مواضِع كثيرةٍ و ثبَّتهم، و إنَّا لنرجوا مِن الله أن يجعلهم في الآخرة مع النبيئين و الصِّدِّيقين و الشهداء و الصالحين و حَسُن أولئك رفيقا.

- هلَّا ذكرتَ لي مولاي السلطان بعضَ أولئك المجاهدين؟!

- أفعلُ إن شاء الله.. فمنهم الأمير مودود أمير الموصل الذي جعل من الجهاد في سبيل الله شُغلَه الشاغل، فلم يغِب الجهادُ عن ذهنه يوماً، و لم يبعد عن خاطره حتى مات، و ذلك ما لم يحصل مع مَن سبقه مِن الأمراء الذين كان بعضُهُم يُقاتل في سبيل الأرض، و بعضُهُم الآخر يُقاتل في سبيل العرش، و بعضُهُم الثالث يُقاتل لردِّ عدوان العدو مَحْضًا، أما مودود فلم يكن كذلك البتة، و إنما رفع رايةَ الجهاد مُخلصاً لله فنصره اللهُ في غير ما وقعةٍ مع الإفرنج.

- يبدوا أنِّي لا أعرف من الـمُجاهدين إلا النزر اليسير!.. فهذه أوَّل مرة أسمع فيها باسم هذا المجاهد الكبير، مودود رحمه الله تعالى!.

- ربما سببُ ذلك قِصَرُ مدة إمارته و جهاده، و ما أكثر الـمُجاهدين الذين لا يعرفُ الـمُسلمون أسماءهم، فضلا عن أن يعرفوا دقائقَ حياتهم و تفاصيل جهادهم.. و لكن ما ضرَّهُم جهلُنا بهم ما داموا في علم اللهُ تعالى، و كفى به عليمًا.

- صدقتَ مولاي السلطان.. و عمَّن تُحدِّثني مِن الـمُجاهدين سوى مودود رحمه الله؟

- منهم أيضاً الأتابك عماد الدين زنكي الذي كان مُجاهداً في جيش مودود، فلما تولى إمارةَ الموصل سنة إحدى و عشرين و خمسمئة (521هـ) استلم رايةَ الجهاد من مودود، فأذاق الإفرنج الويلات، و كبَّدهم الخسائرَ الفادحات، و انتزع منهم بلاد (الرِّها) انتزاعاً بعد أن استوطنوها و أقاموا فيها نصف قرنٍ من الزمان، حتى ظنَّت أجيالهم المُتوالية أنَّ الأرض أرضهُم و مستقرّ الأمان، فخيَّب الله ظنَّهم و أذهب خضراءَهم فيها بِعمادِ الدين، و كان ذلك قبل ما يقرب الخمسين عاماً مِن اليوم، فاللهَ نسألُه أن يجعله مِن الشهداء و يُكثِّر من أمثاله في دُنيا النَّاس.

- قد دعوتَ بأن يكون مِن الشهداء.. فكيف كانت وفاته؟

- نعم نرجوا له الشهادةَ صِدقًا؛ فبينما أتابك زنكي نائمٌ في ليلةٍ من ليالي ربيعٍ الآخر سنة إحدى و أربعين (541هـ) حيث كان مُحاصِراً قلعةَ (جعبر) الواقعة على الفرات في الطريق إلى دمشق، إذ وَسوسَ الشيطانُ في صدر أحد الغلمان من مماليكِ عماد الدين المُقرَّبين أن يقتله أثناء نومه، فقام الغلامُ بجُرمِهِ المَشهود و فرَّ هارباً إلى داخل القلعة مُبلِغاً أهلها الخبرَ، و أما جيشُهُ فقد فكَّ الحصارَ على اضطرار، و رجع حزيناً إلى الديار.

- رحمة الله الواسعة عليه.. و إنَّه -إن شاء الله- لمِنَ الشهداء كما قال النبي ﷺ: «الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: المَطْعُونُ، والمَبْطُونُ، والغَرِيقُ، وصَاحِبُ الهَدْمِ، والشَّهِيدُ في سَبيلِ اللهِ».

- نحسبُهُ كذلك، و اللهُ حسيبه.

- و ماذا بعد؟

- ثم إنَّ الله تعالى أخرج من صلبِهِ من هو أكثر منه جهاداً و أشدَّ وطأةً على الكفار، و أكبر منه مُلكاً للبلاد و إقامةً فيها لقواعد العدل بين العباد.

- و مَن تُراه يكون؟!

- ذاك هو أستاذنا و مولانا المَلكُ العادلُ نور الدين محمود، و قد كـ..

قاطعتُ حديثَ السلطانِ لـما أتى على ذِكر هذا الرجل الذائع الصيت؛ ذاك أنَّ له مكانةً واسعةً مِن التعظيم و التقدير و الإعجاب في قلبي و قلوب المسلمين جميعا.. ثم قلتُ مُعلِّقًا:

- أجل!.. لله دُرُّه مِن ملكٍ عادلٍ و قائدٍ باسلٍ! تالله قد أحبَبْتُهُ حباً جَماً لِما بلغني عنه مِن عظيم الأخلاق، و حُسن الجهاد، و الشِدَّة على أعدائه الكافرين، و الرَّحمةِ بإخوانه الـمُؤمنين، فأضحى كأصحاب رسول الله ﷺ حينما وصفهُم اللهُ تعالى بأنهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:29].

- نعم، هو و الله كذلك.. فلقد كان الجميعُ يتحدث عن شَبَهِهِ بأصحاب رسول الله ﷺ في الزهد و العدل و الشجاعة و الإقدام، و لكنني لو شرعتُ أُحدِّثُكَ عن خِصاله و فِعاله لطالَ بنا الـمُقام، فمن ذا الذي يقدر على أن يوفِّيه حقَّهُ و يكفيه نصيبَه من الشكر و الإكرام!

- أدري ذلك مولاي السلطان.. فهكذا هم عُظماء الإسلام دائماً و أبداً؛ يملؤون الدنيا خيراً و فضلاً حتى لا يجدُ الـمَرْءُ لِشُكرِهم و مُجازاتهم عما عمِلوا أعظمَ مِن أن يدعوا لهم اللهَ بالرحمة و الغفران و أن يجعلهم في مصاف الـمُجاهدين الأبرار.

- إن شاء اللهُ تعالى..

- فما الذي جرى بعد وفاة أتابك عماد الدين زنكي؟

- كانت وفاتُه عامَ إحدى و أربعين و خمس مئة (541هـ)، بعد أن خلَّف وراءه أربعةَ أولاد ذكور مِن بينهم نور الدين محمود و سيف الدين غازي، و هو أسنُّ من نور الدين، فتقاسماَ تِركةَ أبيهما حيث أخذ نور الدين مدينةَ حلب و ما جاورها مِن مدن الشام، و أخذ سيفُ الدين الـمَوْصلَ و الجزيرة و ما حولهما، بينما مَلَكَ الأخُ الثالث -و اسمُه نصرة الدين- مدينةَ حرَّان بالتبعية لنور الدين، و أما الرابع -و هو قطب الدين مودود- فقد كان صبياً في رعاية أخيه سيف الدين.. على أنَّ الشيطان يئس أن يُوقِعَ بين الإخوة العداوةَ و البغضاءَ بعد أن اتفقوا و رتَّبوا فيما بينهم أوضاعَ بلادهم على أحسن حال، ثم لم يكد يجري عامٌ واحدٌ حتى

توفَّى اللهُ سيفَ الدين إلى جواره الكريم، فمَلَك نورُ الدين تِركة أخيه مِن بعده، فأصبح مَلِكاً على بلاد أبيه كلِّها.

- و كيف كان حالُ دولته بعدئذ؟

- لقد مكَّن اللهُ لعبده نور الدين تَـمْكيناً عظيماً، و أنزل نصرَه عليه في كلِّ وقتٍ و حين، و وفَّقه حتى أزال البِدَعَ و حافظَ على أصول الدين، و نظر في أمور الرعية و تابَعَ كلَّ شيءٍ يخُصُّهم متابعةً متَّصلةً، و أبطلَ الـمُكوس عن كواهلهم و اكتفى بموارد دولته التي أباحها الإسلامُ و رضيها، وأنشأ داراً للعدل كان يجلس فيها ليَحكُمَ بين الناس مرتين أو ثلاث كلَّ أسبوع.

- و ماذا عن جهادِهِ؟

- قد كانت للملك العادل يدٌ بيضاء في جهاد الإفرنج حتى استردَّ مِن أيديهم الكثيرَ مِن الحصون و القلاع، و استولى على دمشق بعد إذ كان أميرها مجير الدين آبق يستنجدُ ضدَّه بالإفرنج، فاستقبلَهُ أهلُها استقبالَ الأبطال الفاتحين، و كانوا قد أحبُّوه و رغبوا في أن يحكم مدينتَهم مَن هو مثلُه لا مَن هو مثلُ مجير الدين.. ثم نظر بعد ذلك إلى بلاد مصر فوجدها تحت حكم الروافض الإسماعيليين من أحفاد عبيد الله المهدي الزنديق.

- تقصدُ الفاطميين!

- ما هم بالفاطميين إلا أن يكون ذلك زوراً و كذِباً منهم على الخلائق، قبَّحهم الله.

- أجل، لقد فهمت.

- نعم، و بعدها قرَّر الـمَلكُ العادلُ قدَّس الله روحَهُ أنْ يُخلِّص بلادَ النِّيل مِن شرورهم و يُريح الناس منهم و يُزيل آثارهم الكفرية الطاعنة في أصحاب رسول الله ﷺ، فلم يلبث حتى ابتـ..

دخل علينا فجأةً شيخٌ كبيرٌ ذو هيبة و وقار عظيمَيْن..فقام لِقُدومه السلطانُ صلاح الدين مِن مَجلسه كقيام الوَلَد لوالِدِه و التلميذِ لأستاذِهِ، ثم احتضنه السلطانُ احتضان الحبيب الذي غيَّبته تصاريفُ الحياة عن محبوبه طويلاً، و لَعمري كم كان لقاءً رائعاً هذا الذي جمع مُجدَّداً السلطانَ بشيخه و مستشاره و صاحب تدبيره: القاضي الفاضل!

نعم إنه القاضي الفاضل.. و ما أدراك!

لقد جاء القاضي مِن مصر بعد أن اطمأنَّ لاستقرار أحوالها في ظل حُكم الـمَلِكِ العزيز عثمان بنِ السلطان صلاح الدين، و ذلك بعد غيابٍ دامَ سنتين، فرجع و اجتمع شملُه بالسلطان الذي طار فرحاً لعودته، و استبشر برجوعه.. ثم شرع القاضي الفاضل يُحَدِّثُ السلطانَ عن أحوال مصر و أخبارها و أجوائها و متجدِّداتها، و راح الإثنان يتذاكران أحداثَ فتح القدس و ماجرى للافرنج من الذُّل و الاندحار، و كيف صلى المسلمون في الأقصى أول صلاة جمعة منذ أن اغتصبها الكفار. و ختم القاضي حديثَه مع السلطان بالدعاء له بالخير و إسداء النصائح له و تذكيره بثِقَلِ الـمَسؤولية.. قبل أن يستأذِن القاضي في الخروج و إجراء تطويفةٍ بالـمُعسكر و الجند الـمُجاهدين، فأذِن له السلطان فخرج..

بعدها نظر إليَّ السلطان صلاح الدين و قال:

- هذا القاضي الفاضل قَدِمَ من مصر بعد عامين من فراقه عنَّا.. فهل رأيت قطُّ شيخاً فاضلاً و وزيراً ناصحاً مثله؟!

- لا و الله مولاي السلطان.. اللهم إلا ما يُذكَرُ عن السلف مِن أهل القرون الفاضلة، و لا ننسى ما كان عليه بعض العلماء الصالحين مع الـمَلِكِ العادلِ نور الدين محمود؛ كقطب الدين النيسابوري و كمال الدين الشهرزوري.

- صدقت.. و لكن أين توقف بنا الحديث قبل مجيء القاضي الفاضل؟

- عند اعتزام الملك العادل نور الدين إرسال عسكره لـمصر..

- نعم.. أقول: إنَّ عزْمَ الملك العادل على إزالة الحكم الرافضي العُبَيدي من مصر تزامنض و اتَّفقَ مع وُرودِ شاور السَّعدي وزيرُ العاضد لدين الله صاحب مصر إلى دمشق، وسبب ذلك أنَّ أحد الأمراء -و اسمُهُ ضرغام- نازَعَه الوزارةَ و قاتله حتى غلبه عليها، ففرَّ شاور هارباً إلى الـملك العادل نور الدين بدمشق مُستنجداً به و مُستجيراً، و ألحَّ عليه إرسال عساكره معه إلى مصر ليعود إلى منصبه.

- و هل كان ذلك نظيرَ مقابِلٍ ما؟

- بالتأكيد..و الـمُقابلُ هنا هو أن يكون للمَلِك نور الدين ثُلثا دَخْلِ البلاد الـمصرية كلَّ سنةٍ، زيادةً على دفع إقطاعات الجند، و أن يكون شاور نائباً عن الـمَلِك العادل بمصر، و يكون عمي أسد الدين شيركوه مقيماً بعساكره هناك، و يتناصَفَ معه تدبيرَ أمور البلاد بأمر نور الدين، فعزم هذا الأخير على تسيير عساكره إليها عزماً قويًّا.. ففعل ذلك في جمادى الأولى من سنة تسعةٍ و خمسين (559هـ) بعد أن سيَّرني معهم و جعل علينا جميعاً عمي أسد الدين شيركوه، و هو مُقَدَّمنا و أكبر أمرائنا شأناً عند الملك، زيادةً على كونه مِن أبطالنا و شجعاننا الكبار الذين يرعَبُ الإفرنجُ مِنهم، و كان هوى عمي في الـمسير، و عنده مِن الشجاعة و قوة النفس ما لا يُبالي بمخافة..

- و كم كان عُمُرُك يوم سِرتَ إلى مصر أول مرة مع عمِّك أسد الدين؟

- كان عُمري سبعاً و عشرين عاما.

- لقد كنتَ شاباً يافعاً مولاي السلطان، أما الآن فقد كَبِرت و اشتعل رأسُكَ شيبا (قلتُها على سبيل الـمُزاح).

انفرجت أساريرُ وجهِ مولاي السلطان و ضَحِكَ إثر مزحتي الخفيفة .. ثم استأنفَ الحديثَ قائلا:

- ثم بعدها دخلنا مصر و معنا شاور، و اقتتلنا مع جيش ضرغام أشدَّ قتال و أعنفَه، فهُزِمِ الجيش المصري و قُتِلَ ضرغام و طِيفَ برأسه في البلاد، و رجع شاور إلى منصبه وزيراً للعاضد، و لكنه نكث العهد الذي بينه و بين الملك العادل نور الدين و أخلَّ به، و طلب منَّا الرجوع إلى الشام بكلِّ وقاحةٍ و صفاقة وجه، فلم يكن أمامنا إلا الامتناع و تذكيره بعهده مع الملك، فلما لم يُجِبنا حَكَمنا عنوةً البلادَ الشرقية و استولينا عليها، فاستعان شاور- قبَّحه الله- بالإفرنج الكفار علينا بعدما خوَّفهم مِن نور الدين إن مَلَك البلاد، فسِرنا إلى بلبيس و جعلناها ظهراً لنا و حصناً منيعاً أمام أعدائنا، ثم اجتمعت عساكر شاور و عساكر الإفرنج جميعاً علينا، و حاصرونا ثلاثة أشهرٍ كنا خلالها ندافع عن مواقعنا و نُغاديهم القتال و نُراوحهم، فلم يُفلحوا في النَّيْلِ منا و لم يجدوا فينا إلا الصبر و الجَلَد على ما نحن فيه.. ثم حَدَث أن بلغَ الافرنجَ خبرُ امتلاك الملك العادل نور الدين لحِصْنْ حَارِمٍ بالشام و انهزام أذنابهم فيه، و مسيره بعدها إلى قلعة بانياس و امتلاكه، فولَّوا القهقرى مُدبرين و على أعقابهم ناكصين ليحفظوا بلادهم، فكاتبوا عمي أسد الدين في الصلح فأجابهم إلى ذلك مُضطراً، و قبضوا من شاور مبلغاً عظيماً مِن المَالِ لِقَاء استنجاده بهم.. فخرجنا جميعنا -نحن و الإفرنج- قاصدين الديار، و ما زالت نفسُ عمي أسد الدين تُحدِّثُهُ في معاودة قصد مصر و الاستيلاء عليها بعد أن ينتقم مِن شاور.. فـ ..

سكتَ مولاي السلطان و ظلَّ شاردَ الفكرِ مشغولَ الخاطرِ مدةً من الزمن، فظننت أنَّه بصدد إخباري عن حادثٍ ما نسي أن يُخْبِرَنِيهِ في سياق حديثه معي، و لكن بمجرد أن انقشع عنه ذلك الشرودُ و الانشغالُ نادى أحدَ الجنود الحرَّاس بالخارج، و أمَرَهُ أن يستدعيَ القاضي ابن شدَّاد لأمرٍ مهمٍّ، و أن يُعجِّل المجيءَ.. و هنا دفعني الفضولُ لأسأله عنه:

- مولاي السلطان! مَن تُراه ابن شداد القاضي هذا؟ و ما سبب طلبك له؟

- فأما سؤالك الأول: فذاك قاضي عسكرنا و بيتنا المقدسي، و سيدنا ومولانا و ناصِحُنا الأمين، أبو المحاسن، و هو غالباً ما يُسمعُني أحاديث رسول الله ﷺ، و أنا أميل إلى شِعْرِه ميلاً كاملاً و أبدي له إعجابي به، ثم إنه قد صنَّف لي كتاباً مَلِيحاً في الجهاد لأستأنِس بالاطِّلاع على ما فيه مِن فضائله و قواعده و غير ذلك مما يجب عليَّ أن أعرفه و لا أجهله عن الجهاد، حفظه الله تعالى مِن كلِّ سوء و شر.. و أما الثاني: فلِكَيْ استشيره في سُبُل الحفاظ على هذه البلاد المُباركة حال عزمِ الإفرنج على غزوها مُجدَّدا والإحاطة بها بعد إذ استردَّيناها منهم، و إنَّهم الآن مجتمعونُ بمكان يُقال له (بيت نوبة) قريبٍ مِن معسكرنا هنا، و إني لا آمُرُ بشيءٍ كبيرٍ إلا و أشاور مَن أراه مناسباً للأمر الذي أريده، و مولانا القاضي ابن شدَّاد رجلٌ آتاه الله بسطةً في العلم و الحكمة و حسن الاطلاع بما يصلح أن يجعله في طليعة المُستشارين عندي..

ثم لم يلبث أن دخل علينا شيخٌ يُناصفُ القرنَ مِن العمر، يغلب الشيب على سواد شعر رأسه و لحيته، ذو وجهٍ طليقٍ يُشعُّ منه النور الذي يُكرِمُ به اللهُ تعالى عباده العلماء المُخلصين، فألقى علينا التحيةَ ثم جلس إلى جانب السلطان بعد أن استأذنه في ذلك. كان هذا هو الشيخ أبو المحاسن ابن شداد، قاضي بيت المقدس و عساكر السلطان.. فتباحث الاثنان في أمر الدفاع عن المدينة و السبيل إلى ذلك، و أشار ابنُ شداد إلى السلطان بأفضلية اجتماع قادة الأركان وأمراء الحرب للفصل في القرار، فوافقهُ السلطان في ذلك و خرج القاضي ليُعلن عن الاجتماع للقادة و الأمراء.. ثم نظر إليَّ السلطانُ و قال:

- إنَّ انشغالاتنا مِن الكثرة بمكان، و لا تكاد تمرُّ ساعةٌ إلا و يستجدُّ فيها جديدٌ من الأخبار و الأشغال ما ينبغي أن يُبْلِغني به وزرائي و عُمَّالي، و ليس انقطاعُ حديثنا إلا بسبب ذلك..

- أفهمُ ذلك مولاي السلطان.

- أقولُ: بعدما خرجنا من مصر على إثر غَدْر شاور بنا مكثنا ما يقرب ثلاث سنين إلى أن حلَّ شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين و ستين (562هـ).. ففيه عزَمَ عمي أسد الدين على غزو مصر و قد بلغ حنقه على الوزير شاور مبلغاً عظيماً، و لما استأذن الملك العادل نور الدين في ذلك أذِن له و سيَّرني برفقته في ألفين مِن الفرسان، فسِرنا على البرِّ حتى عبرنا النيل و نزلنا بالجيزة، ثم انتقلنا إلى الصعيد حتى بلغنا مكاناً يُعرف بـ(البَابَيْن)، و لم يكد شاور يسمع بقدومنا حتى راسل الإفرنجَ و استنجد بهم علينا مرةً ثانيةً مقابل مالٍ تعهَّد لهم بدفعه إليهم، فجاؤوا مِن كلِّ فجٍّ و هُم بعدد حبَّات الرَّمل، فخاف بعضُنا لكثرتهم و أشاروا على عمي أسد الدين بالرجوع إلى الديار، و لكن فارساً مَمْلوكياً شجاعاً ايمُه شرف الدين برغش وبَّخ الخائفين و قال: «مَنْ خَافَ القَتْلَ و الجِرَاحَ وَ الأسْرَ فَلا يَخْدِمُ المُلُوكَ، بَلْ يَكُونُ فلَّاحاً أوْ مَعَ النِّسَاءِ فِي بَيْتِهِ، وَ اللهِ لَئِنْ عُدتُمْ إلَى المَلِكِ العَادِلِ مِنْ غَيْرِ غَلَبَةٍ وَ بَلاءٍ تُعذَرُونَ فِيهِ لَيَأخُذنَّ إقْطَاعَاتِكُمْ وَ لَيَعُودَنَّ عَلَيْكُم بجَمِيعِ مَا أخذتُمُوهُ إلى يَوْمِنَا هَذَا!. وَ يَقُولُ لَكُمْ: أتَاخُذُونَ أمْوَالَ المُسْلِمينَ وَ تَفِرُّون عَنْ عَدُوِّهِمْ، وَ تُسَلِّمُونَ مِثْلَ هَذِهِ الدِّيَارِ المِصْرِية يَتَصرَّفُ فِيهَا الكُفَّارُ؟!».

- لله دُرُّه مِن باسلٍ و مِغوارٍ!.. فهل وافقَ رأيُكُم و رأيُ أسدِ الدين رأيَه؟

- لا شك في ذلك.. فقد قلتُ أنا مثل مقولته، و وافق عمي ذلك و عمِلَ به، ثم تشجَّع البقيةُ و وافقوا كلام ذلك الشجاع و اجتمعت كلمتنا على اللقاء و الصبر على ذلك.. فلما التقينا -و هم أضعاف عددنا و معهم أصحاب شاور- قَتَلْنا منهم مقتلةً عظيمةً، و مَنَحَنَا الله أكتافهم و نصرنا عليهم.. و كان هذا مِن أعجب الأمور؛ أن يهزِمَ ألفَا فارسٍ عساكِرَ الإفرنج و مِصر جميعاً!!

- صدقتَ مولاي السلطان.. و قد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإذْنِ اللهِ وَ اللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:249].. و مِن ثَم فمَن كان صابراً عند

لقاء عدوه و هو موقنٌ بأنَّ وعد الله حقٌّ و أنَّ النصر من عنده وحده لا عن كثرةٍ عدد عدوه، فحريٌّ بأن ينتصر عليه و يهزمه و يُمنَح كتفَه.

- نعم أي و الله.. ثم إنه بعد هزيمة الكفار و المصريين جَبَى عمي أسد الدين خراجَ الصعيد و خراجَ ما في طريقه إلى الإسكندرية، حتى إذا ما بلغها سَلَّمها له أهلُها مِن غير قتالٍ، و استنابني عليها و عاد هو إلى الصعيد.. و لكن سرعان ما قصد الإفرنجُ و المصريون معاً الإسكندريةَ و حاصرونا فيها لِمَا يزيدُ عن ثلاثة أشهر حتى اشتدّ الحصار و قلَّ الطعام و ضاقت بنا الأرض بما رَحُبَت، فلم نَزَل صابرين على ذلك مُحتسبين حتى قَدِم عمي أسد الدين و أرسل المُحاصِرون لنا إليه يطلبون الصُّلحَ و التفاوض، فصالحهم عمي على أن يدفع له شاور خمسين ألف دينار سِوى ما أخذه مِن البلاد في مقابل أن تنسحب عساكرُ عمي من الإسكندرية، و اشترط هو أن يخرج الإفرنج مِن مصر و لا يبقون فيها حيث انضاف إلى قوة طمع عمي في تملُّكِ البلاد الخوفُ عليها مِن أولئك الإفرنج بعدما كشفوها كما كشفها و عرفوها كما عرفها.

- و هل خرجوا كما اتفقتُّم؟

- قد خرجنا جميعُنا مِن مصر على مضضٍ و نحن كارهون لخروجنا حتى وصلنا إلى ديارنا الشامية، و قد علمنا بعد ذلك أنَّ شاور سمح للإفرنج بأن يضعوا لهم شحنةً من الفرسان على أبواب القاهرة ليمنعوا وصول عساكر الملك العادل إليها و الظفر بها، زيادةً على كون ذلك الأمر تمهيدًا مُدبَّراً لغزوها مِن طرفهم؛ فإنه ما أن حلَّت سنة أربعٍ و ستين (564هـ) حتى ساروا إليها طامعين، و في الاستيلاء عليها راغبين، بعدما راسلوا ملك عسقلان ليقود بنفسه عساكرهم إليها، و زيَّنوا له أمر غزوِها، فقادهم إليها على مضضٍ و وصلوها شهر صفر، فلم يزالوا يقتلون و يسبون و ينهبون في طريقهم إلى القاهرة حتى بلغوها و حاصروا أهلها بها، و حينئذٍ أرسل الملكُ العاضد صاحب مصر إلى الملك العادل نور الدين بالشام مستنجداً به،

و بعث إليه بشعور نسائه إمعاناً في طلبه، و ذلك مقابل منحه ثلث البلاد المصرية و إجراء الإقطاعات على الجنود و القادة، و أن يكون عمي شيركوه مُقيماً بعساكره فيها.

- فهل أجاب نورُ الدين الملكَ العاضد؟

- نعم، فما هو إلا أن سارع الملك العادل في تلبية استنجاد العاضد و سيَّر للمرة الثالثة عساكرَه إلى مصر، و جعل القيادة إلى عمي أسد الدين كما في المَرَّتين السالفتين، و كان مجموع الفرسان ثمانية آلاف فارس منهم ستة آلاف من التركمان، و قد أنعَمَ الملكُ العادل على عمي بالأموال و الأسلحة و الآلات فوق الأمراء و الفرسان المماليك.. أما أنا فقد كنتُ أكرَهَ الناس للخروج في هذه الدفعة و أضيَقَهم صدراً منه، و ما خرجتُ مع عمي باختياري، و إنما طاعةً للملك العادل نور الدين الذي دفعني إلى ذلك دفعاً و جهَّز لي ما أحتاجه تجهيزاً غير منقوص، فلم يترك لي سبباً يستبقيني به، و كنتُ حينئذٍ كأنما أُساق إلى المَوت سوقاً، و لكن كان ذلك قضاء الله و قدره و مشيئته و تدبيره الحكيم، و قد كـ..

قلتُ له متعجباً بعدما قاطعت كلامه:

- سبحان الله! و كأنَّ مسيرك مولاي السلطان إلى مصر و أنت كارهٌ له مثالٌ لقوله تعالى و هو أصدق القائلين: ﴿وَ عَسَى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللهُ يَعْلَمُ وَ أنْتُمْ لَا تَعْلَمُونْ﴾ [البقرة:216].. فعلى ما أعلمه أنَّ مسيرك ذاك أعقبَهُ توفيقُ الله لكم و إنزاله النصر عليكم بتملُّكِ مصر و القضاء على الوزير الغادر شاور!

- نعم، حدث كلُّ ذلك و أكثر.. فسبحان علَّام الغيوب و مُنفِذ الأقدار؛ فبعد خروجنا من الشام كان الوزير شاور قد صالح الإفرنج على الخروج و العَوْد مقابل إعطائهم ألف ألف دينار بعد أن عَلِمَ الطرفان بقدومنا يومها و قَصدِنَا للبلاد، فانشمر الإفرنج إلى ديارهم راجعين بخُفَّي حنين، و على أعقابهم ناكصين، خوفاً مِن عساكر الإسلام و أملاً في الرجوع إلى مصر مرةً أخرى، و لكن مكروا و مكر اللهُ، و اللهُ خيرُ المَاكِرِينَ.. و أما شاور فقد ضيَّق على الناس

هناك و طالبهم بما يملكون مِن الذهب، و حرص على تحصيل ما قدَّمَه إلى الإفرنج على حساب أموالِهم ظُلماً و قهراً مِن دون حق، فما هو إلا قليلٌ حتى جبرَ اللهُ تعالى مُصابهم و أصلَحَ حالَهم بقدومنا و استقبال المَلِك العاضد لنا، و قد خلعَ هذا الأخير على عمي أسد الدين بالخِلعة السنية و أكرمه، و رتَّبَه وزيراً و أجرى عليه و علينا جزيل الأموال و الجرايات، و لم يكن شاور ساعتئذٍ بقادرٍ على الإفصاح عما بنفسه مِن المكر و الخداع و الشر تجاهنا، وقد رأى تقرُّب الملك العاضد منا و انحيازه إلينا، و لكن بعدما رأيناهُ يُماطل عمي أسد الدين و يُسوِّف له بما جرى بينه و بين الملك العادل مِن الاتفاق و العهد على دفع الأموال و الإقطاعات و إفراد ثُلث البلاد له، علانا اليقينُ بأنَّ الغدر منه بنا ليس ببعيد.

- فكيف تصرَّفتُم حينئذٍ؟

- لقد اتَّفق يقينُنا ذلك مع ركوب شاور كلَّ يومٍ إلى عمي و المَسير بصحبته في الكثير من الأوقات، فشاوَرْنا أسدَ الدين في انتهاز الفرصة و قتله لأنَّه لن يكون لنا في هذه البلاد شيءٌ مادام شاور موجوداً على حاله، لكنَّ عمي رفض ذلك و لم يُمكِّنا منه.. و ذات يومٍ حدَثَ أن قَدِمَ شاور إلى منزل عمي أسد الدين و وجده قد ذهب لزيارة قبر مولانا الشافعي رضي الله عنه، و كنت أنا و بعض الأمراء بتلك الناحية متواجدين، فاتَّفق كلمتُنا على أسرِه و حبسِهِ في خيمةٍ دون قتله قبل مشاورة عمي في ذلك بعد رجوعه، فلما علم عمي بالحال عجَّل رجوعه و لم يمكنه إلا موافقتنا على قتل شاور و إراحة الناس جميعاً من شرِّه و عبثه، فحززنا رقبته و أرسلنا برأسه إلى الملك العاضد الذي طلب منَّا ذلك.. و كان ذلك في السابع عشر من ربيعٍ الآخر.. فلله الحمد أولاً و آخراً، و له الفضل من قبل و من بعد.

- و ماذا عن الملك العادل نور الدين.. لعلَّهُ فرح بالفتح فرحاً عظيماً؟!

- لا ريب في ذلك.. فلقد بَلَغَنا أنَّه سُرَّ و فرح بالفتح إلى الغاية، و ضرب البشائر في سائر البلاد، و بثَّ الرسل بذلك إلى الآفاق، و هنَّأهُ الشعراء بقصائدهم أجزل تهنئة، و لم يفرح رحمه الله بشيءٍ أكثر من فرحه بفتحنا الديار المصرية و قهر الروافض و استئصال شأفتهم.

- أعظِم به من فتح و نصر!.. فالحمد لله الذي مكَّن لكم القضاء على الوزير الغادر شاور، و وفَّقكم للاستيلاء على مصر و حُكمها بالإسلام الصحيح، و ضمِّها إلى جانب الشام لتكون البلاد واحدةً لا مفرقةً.. و لكنني أرى اقتراب أصحاب مجلسك للاجتماع الذي طلبته مولاي السلطان!

- أوَ هُمْ كذلك؟!

- أجل مولاي السلطان.. فها هو ذا القاضي ابن شداد يتقدَّمُهُم..

دخل القاضي.. و دخل وراءه جمع الأمراء الحربيين و العلماء مُحيِّينا بتحية الإسلام.. و لأول مرةٍ أستطيع مشاركة هؤلاء الكِبار مجلسهم مع السلطان و اجتماعهم المهمَّ به، فمن ذا الذي لا يرغب في رؤية مجلس السلطان صلاح الدين فاتح القدس؟! و مشاهدة اجتماع صنَّاع القرار في دولته عن قرب و كثب؟!.. و لطالما سمعتُ ما كان يقوله المُعاصرون للسلطان و المُرافقون له و هم يصفون مجالسَه أحسنَ الأوصاف و كأنها مجالس أصحاب النبي ﷺ، و إني إذْ عشتُ لحظاتها و انغمستُ في أجوائها فلا أصفها إلا كما وصفها أولئك، فأحسستُ و كأني في العهد النبوي و أمامي يجلس الصحابة الكِرام، و لا فارِقَ بين المَجلِسَيْن سوى القرون القمرية الخمسة التي تفصلُ ما بينهما!

بدأ الاجتماعُ بكلمةٍ ألقاها القاضي ابن شداد بطلبٍ من السلطان تكلم عبرها عن الجهاد و فضله كلاماً حسناً، و حثَّ المُجتمعينَ على الاقتداء بالنبي ﷺ و أصحابه يومَ نصرُوهُ و بايعوه على الموت.. ثم تكلَّم السلطان بكلامٍ ذكَّر فيه الأمراءَ الحاضرين بأنَّ دماء المسلمين

و أموالهم و ذراريهم معلَّقةٌ بذمَّتِهِم، و حثَّهم على مواصلة ما بدؤوه من جهاد الأعداء و صدِّهِم في سبيل الله.. و انتهى بكلام الأمير الكبير سيف الدين المشطوب الذي ثبَّت موقف الأمراء المُوافق للسلطان، و حلف بأنَّ أحداً منهم لن يرجع عن نصرته إلا أن يموت.. ثم انصرف الجميع بمن فيهم السلطان، و لكن دون اتفاق بينهم على خطة الدفاع عن القدس التي أصرَّ على تنفيذها السلطانُ، لأنَّ بعض أولئك الأمراء أبدوا تخوُّفَهُم من الخطة و فضَّلوا الهجوم على الصليبيين عوضاً عن الدفاع، إلا أنهم في المُقابل أظهروا موافقة رأي السلطان مجاملةً لا اقتناعاً..

و انصرفتُ أنا لانصرافِهِم، ثم اتجهنا جميعُنا يتقدَّمُنا السلطان إلى المسجد الأقصى المبارك لصلاة العشاء، و قد علمتُ حقًّا أنَّ السلطان صلاح الدين أشدُّ الناس مواظبةً على الصلاة في جماعة مثلما بلغني عنه مراراً، فصلى بنا ابنُ شداد إماماً بصوته العذب الشجي في ذلك المسجد الذي لا يُضاهيه مسجدٌ في الدنيا جمالاً و رونقاً بعد الحرَمَيْن الشريفين، و كان المُصلُّون يُعدُّون بالآلاف المؤلفة حتى اكتظَّ بهم المسجد عن آخره، و ذلك في مشهدٍ يُغيظ الأعداء و يبعثُ إليهم برسالةٍ مفادُها: يا أمَّة الكَفْرِ! إنَّكم إن مَلَكتُم القدسَ ألف مرَّةٍ، فأمة الإسلام ستُقاتِلُكُم عليه عشرة آلاف مرةٍ حتى تسترِدَّهُ منكم.. و إنَّكم إن مَلكتُموهُ ألف سنةٍ، فإنَّ لأمة الإسلام العاقبةُ من بعد حتمًا.. و ما من غاصبٍ للقدس المُبارك إلا و المسلمون له بالمرصاد حتى يُولُّونه القهقرى و يرجع ناكصًا مِن حيث أتى!

و لكن بعد قضائنا الصلاة رأيتُ السلطانَ و قد ضاق صدرُهُ، و علاهُ الهمُّ، و ركِبَتهُ الحيرةُ بسبب ما أظهرَهُ بعض الأمراء من عدم الاقتناع بخطة الدفاع عن القدس، و كان معهُ القاضي ابن شداد الذي بدا و كأنَّهُ ينصحه و يُداوي ما به من الهم و الحيرة و قد أخذته الشفقة عليه و على مزاجه..

تركتُ المشهد و أخلدتُ للنوم في إحدى زوايا المشهد ضارباً موعداً للنهوض مع أذان الفجر، و قد كانت الليلة ليلة الجمعة..

بعدها نهضتُ و قد حلَّ الفجر و أذَّن المؤذن.. فرأيتُ منظراً يُروِّع القلوب و يشدَهُ الأنفس عجباً له؛ رأيتُ السلطان صلاح الدين، الملك الكبير، و فاتح القدس، و قاهر جيوش الصليبيين و الروافض العُبيديين، و ناصر الإسلام، و مُرعِب أعدائه.. رأيتُ هذا العملاقَ ساجداً و الدمع يسيل على موضع سجوده كأنه الشلَّال! و هو يدعو الله تعالى بدعاءٍ لم أتمكن من سماعه، و لكني أعلمُ بأنه كان يدعوه ليُفرج عنه ما به من القلق على أمن القدس و استقراره في ظلِّ وجود الأعداء الكفار بالقرب منه و هم يتربصون به الدوائر.. فبينا أنا و السلطان داخل الخيمة السلطانية على موعدٍ متجدِّدٍ مع متابعة ما كُنَّا نتبادلُهُ من حديث، إذ وصلت إليه رسالةٌ عاجلةٌ من الأمير الكبير (عز الدين جُرْديك) يُخبِرُهُ فيها بوقوع الاختلاف في صفوف الأمراء الصليبيين بين راغبٌ في الهجوم على القدس و بين متخوِّفٍ منه و طالبٍ للرجوع إلى الديار، قبل أن يولي الجميع القهقرى و ينشمروا راجعين.. فتهلَّل وجه السلطان فرحاً و أخذ يُحرِّكُ شفتاهُ حمداً لله و شكراً..

- الله أكبر! و كأني بقول الله تعالى: ﴿وَ رَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوْا خَيْرًا وَ كَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ وَ كَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:25].. البارحة فقط جرى الاختلافُ بين أمراءنا المُسلمين، و اليوم أجراهُ اللهُ بين أمراء الافرنج حتى صيَّرهُم إلى العَوْد و الرجوع.. فخبِّرني بالله عليك مولاي السلطان! بماذا دعوتَ اللهَ فجرَ اليوم إذ أنت ساجدٌ بين الأذان و الإقامة؟!

- أوَ كُنتَ بالقرب منا البارحة؟!

- نعم مولاي السلطان، و لكنك و القاضي الفاضل لـم تنتبها لوجودي بركن الـمسجد.

- لم أكن لأفضي ما كان بيني و بين ربي لولا أنك نظرت ما كان البارحة مني.. لقد كان برفقتي القاضي ابن شداد الذي كنتُ أصلي معه في غالب الأوقات، و لـما رأى ما بي من قلقٍ و حيرةٍ طلب منِّي الاغتسال و قد كان اليوم يوم جمعة كما تعلَم، و أن أصلي بموضع مسرى النبي ﷺ، ثم أصدِّقَ بشيءٍ خفيةً على يد من أثقُ به، و أصلي ركعتين لله بين الأذان و الإقامة و أدعوه بإخلاص في سجودي قائلاً: «إلَـهِي! قَدْ انْقَطَعَتْ أَسْبَابِي الأَرْضِيَّةَ فِي نُصْرَةِ دِينِكَ، وَ لَـمْ يَبْقَ إلاَّ الإِخْلَادُ إِلَيْكَ، وَ الاعْتِصَامُ بِحَبْلِكَ، وَ الاعْتِيادُ عَلَى فَضْلِكَ، أَنْتَ حَسْبِي وَ نِعْمَ الوَكِيلُ».. و قال لي: إنَّ الله أكرمُ مِن أن يُخيِّبَ قصدك.. ففعلْت ذلك، و قد رأيتَ معي استجابة الله لدعائي برجوع الافرنج خائبين و على أعقابهم ناكصين.. فلله الحمد و الشكر أولًا و آخرًا.

- الحمد لله..على أنَّك لـم تُكمِلْ لي بقية حديثك عن غزوك بلاد مصر مع عمك أيام الـملك العادل نور الدين.. فما الذي حصَلَ بعد أن استوزر عمُّك للملك العاضد؟

- لعلَّك لا تدري أنَّ وزارة عمي لم تدُمْ إلا شهرين و خمسة أيام حتى توفَّاه الله تعالى و أخذه إلى رحمته الواسعة.

- رحمه الله تعالى، لم أدرِ ذلك فعلا!

- إنَّ مات عمي بسبب خانوقٍ عظيمٍ اعتراه، و ذاك لأنَّه -رحمه الله- كان شديد الـمُواظبة على تناول اللحوم الغليظة، و كانت تتواتر عليه التُّخُم و الخوانيق فينجوا منها بصعوبة، حتى شاء الله أن يتوفَّاهُ في الـمرة الأخيرة.

- و بعدها أصبحت أنت وزيراً للعاضد.. أليس كذلك؟!

- بلى، فبعد وفاة عمي قمتُ و استوزرتُ للملك العاضد الذي خلع عليَّ خِلَعَ الوزارة و قد بلغتُ من العمر ساعتئذٍ اثنان و ثلاثين سنةً، و لكن ما فتِئت نفسي تُحدِّثُني لحظة استوزاري

بوجوب اجتثاث جذور الروافض الزنادقة من أرض مصر و نشر الإسلام الصحيح الذي كان عليه مولانا رسول الله ﷺ و أصحابه الكِرام، و قد كنتُ موضع الثقة عند الملك العاضد و وافق وزارتي الجميعُ، ما خلا النادرَ اليسيرَ منهم.

- فما خَبَرُ الجُندِ النوبيين (السودان) في قصر الملك العُبيدي و قائدهم المؤتمن؟ فقد بلغني أنَّ هذا الأخير كاتب الافرنج يستقدمهم لإسقاطك مِن على الوزارة!

- صحيحٌ ذلك.. فأما المؤتمن هذا فقد كان متعصِّباً لمذهب الروافض أقبح التعصُّب، و كان طامعاً في خلافة الوزير شاور كونه هو المُتحكم في شؤون القصر و المُتصرف الأول بداخله، فلم يلبث طويلًا بعد أن صرتُ الوزير في البلاد حتى بدأ يكيد لي و يحيك الدسائس للخلاص مني، و ذلك بتوكيله لأحد خَدَمِهِ بإرسال كتابٍ إلى الافرنج يُحرِّضُهُم علينا، و كان مِن عزمه -قبَّحه الله- في حالة استجابة الافرنج له أن ينقضَّ علينا من وراء أظهرنا بعد أن نكون في مواجهة الكفار من الأمام، و بعدها لن يبقى لنا باقية.. غير أنَّ مِن توفيق الله ﷻ لنا و إحباطه لعمل المؤتمن أنَّ أحد الأمراء التركمان مِن حولي ارتابَ للنَّعلَيْنِ الجديدَيْن اللَّذيْنِ كان يتَّخِذُهما حاملُ كتابِهِ إلى الافرنج و أنكرَهُما، فجاء إليَّ بهما لأفْتَقَهُما، فما هو إلا أن عثرتُ بداخلهما على الكتاب الذي كتبه المؤتمن، فكتمتُ الخبرَ مدةً من الزمن حتى يخرج الخائن بعيداً عن القصر إلى حيث يُمَكِّنُنا من رقبته فلا نفلته، فلما كان ذلك أرسلتُ إليهِ جماعةً قتلوهُ و أتوني برأسِهِ جزاءً له على جُرمِهِ المَشهود. و قمتُ بعدها بعزل كلِّ الأمراء و القُواد الذين كانوا حوله بالقصر و جعلت مكانهم جميعاً رفيقي الأمين بهاء الدين قراقوش.

- و هل كان للمؤتمن الخائن أنصارُ و أعوان؟

- بالتأكيد.

- فماذا كانت ردة فعلهم على قتلكم له؟!.. فإنَّ الأمر ربما قد بدا خطيرا بالنسبة لهم!

- أصبتَ في قولك.. فإنَّ كلَّ مَن كان تحت إمرة المؤتمن من الخدم و الجند النوبيين (السودان) قد غضبوا لقتله ثم عَزْل من حوله، و ثاروا بأجمعهم علينا، و هم يربون عن الخمسين ألفاً.. و كانوا من قبل كلما ثاروا على وزيرٍ لهم قتلوه و نصَّبوا مكانه بديلاً له يرتضونه، و لكن خابَ مسعاهم لما ثاروا عليَّ؛ إذ أنهم لما أقبلوا على القصر و أنا متربِّصٌ بهم و متجهِّزٌ لقدومهم جرت الوقعة بيننا، و اشتدَّ الأمر و توسع حتى حمل أخي شمس الدولة توران شاه على فرقةٍ منهم حَمْلةَ الأسود، و قضى على أحد مُقدميهم، فانكفَّ بأسُهُم قليلًا، ثم لم يزل السيف قائماً على رقابهم حتى فرَّقنا شملهم و أضعفنا قوتهم.

- و ما موقف الملك العاضد إزاء هذه الوقعة؟

- قد حَدَثَ أنَّ الملك العاضد كان يُشرف من مِنظرة القصر على المعمعة الحاصلة، و لما رأى انكسار النوبيين أمَر مَن معه من الجند برمي طائفةٍ من عسكرنا بالنُّشَّاب و الحجارة لتميل الكفة إلى النوبيين الذين كان قلبُهُ معهم، و كاد ذلك يحصل لولا أن أمَرَ أخي شمس الدولة النَّفَّاطينَ من عسكرنا بإحراق المِنظرة حتى انعزل العاضد، ثم فُتِح بابُهُ و نودِيَ في أفراد عسكرنا: «إنَّ أمِيرَ المُؤْمِنِينَ يُسَلِّمُ عَلَيْكُمْ وَ يَقُولُ: دُونَكُمْ العَبِيدُ الكِلابُ، أخْرِجُوهُمْ مِن بِلَادِكُمْ!».. فانهارت عند ذلك عزائمُ النوبيين إلى الحضيض، و ضَعُف جأشُهُم و تخاذلوا فيما بينهم حتى كتَبَ الله لنا النصرَ عليهم بفضله تعالى.

- قد ذكرتَ لي مولاي السلطان أنَّك وضعت بهاء الدين قراقوش عوضاً عن الخدم الذين عزلتهم بعد التخلص من المؤتمن، و وصفتَهُ بالأمين.. فهلَّا حدَّثتني عنه؟

- إنِّي أحمدُ الله تعالى أن رزقني الخُلَّص والأمناء من الخدم و الرفاق و الوزراء.. و من أولئك رفيقي الأمين أبي سعيد بهاء الدين قراقوش الذي كان قبلي خادماً لعمي أسد الدين شيركوه، فأعتقه و تحول إلى خدمتي بعده، فهو بعدُ يُطيعني في كلِّ ما آمُره به دون أدنى معارضةٍ أو تأخير، و قد رأيتُ فيه الخصال الحميدة و الخلال الحسنة ما جعلني أستأمِنُهُ على

قصر المُلوك العُبيدين في الديار المصرية بعد استبعاد الخدم النوبيين ذوي النفوذ المُطلق ثم وفاة العاضد، فكان أميناً على قدر ما يقتضيه الحال في ذلك القصر الطافح بالنفائس و التُّحف و نوادر الجواهر التي تَعَاقب على اكتنازِها الملوك العُبيديون حتى أضحت خارج حدود الحصر و الإحصاء، فلم يُغرِ كلُّ ذلك بهاءَ الدين و لم يفتِنْهُ عن صيانة الأمانة و حفظها.. و كان إلى جانب أمانته و زهدِه عاملاً و مهندساً بارعاً تشهد له بذلك آثارُهُ في البلاد المصرية التي أقامها و أنشأها، كالقلاع و الأسوار و القناطر.

- لله درُّهُ من رجلٍ أمينٍ و خادمٍ مخلصٍ و عاملٍ عبقري! فإنِّي أشهد على إتقانه في إقامة الكثير من المنشآت العِمرانية الباهرة في مصر رغم جهلي بكونه هو الذي صمَّمها و أقامها، مثل سور القاهرة و القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام.. و كلُّ ما كنتُ أسمعه عن مُهندِسها و بانيها: أنَّه كان من رجال دولتك و فقط، دون تحديد.

- صدقت في وصفك لتلك المنشآت بالإتقان، و هو ما يشهد عليه الناس جميعاً.. فجزا اللهُ بهاءً الدين خير الجزاء.

- و ماذا بعد القضاء على النوبيين مولاي السلطان؟

- قد عزمتُ بعد ذلك على تقوية الجيش و تعويض الذين عَزلتُهُم وقضيتُ عليهم مِن النوبيين و غيرهم بالجند الشامي والمماليك الأتراك ذوي البأس و القوة و الشدة.. ثم عملتُ على إزالة منكرات الجند النوبيين، و من ذلك أني قمتُ بفتح أبواب القاهرةً ليدخل إليها من شاء و كيفما شاء من عوام الناس بعدما ظلَّت حكراً على أولئك الجند و أمراء العاضد و حاشيته.. و قمتُ بنقش اسم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله على وجه السكة، و اسم الملك العادل نور الدين على الوجه الآخر.. و بذلت الجهد الوفير في بسط العدل بين الناس حتى أظهر بعضُهُم الدهشة من ذلك لفرط ما عاناه من الظلم و الظيم في العهد السابق.. و بذلتُ لهم الأموال و أزلت عن كواهلهم المكوس و الضرائب المُحرمة مهما

صغُرت، ثم قرَّبتُ الأمراء و أصحاب الإقطاعات المصريين بعد إذ بذلتُ لهم الأموال و الخيرات.

- و ماذا عملتَ بشأن الملك العاضد ودولته و الدعوة له في الخطب؟

- كان عملي في كلِّ ما يخصُّ الملك العاضد و دولة العُبيديين منوطاً بالصبر على التدرج في سحب البساط من تحت أرجلهم وهم لا يشعرون، فبدأتُ بتجريد العاضد من كلِّ ما يزيد على احتياجه من المال و الدواب حتى لم يبق له إلا فرسٌ واحد طلبه مني! و عَزَلتُهُ عن الناس ليعتادوا على غيابه و لا يولونه اهتماماً يُذكر.. ثم خَطَوتُ الخطوةَ التالية و هي إزالة الدعوة في الخطبة للملك العبيدي و تحويلها إلى الخليفة العباسي و الملك العادل نور الدين، و قد سبق ذلك أنَّ الملكَ العادل أرسل إليَّ كتاباً يأمُرني فيه بنقل الخطبة فوراً لتكون للخليفة العباسي، فاعتذرتُ له ذاكراً بأنَّ للروافض العُبيدين عهدٌ قديمٌ في مصر لا يُمكِّنُني من نقل الخطبة للخليفة العباسي إلا بالصبر و التأني و التربُّص الشديد، و أنَّ ما يأمرني به مولاي الملك العادل سيكون واقعاً بإذن الله في الوقت الأنسب.. فما أن تسنَّى لي الأمر و تهيَّأت الظروف عزلتُ دُعاة الرفض من أعمالهم و مناصبهم و جعلتُ الأئمة و الدعاة الشافعيين و المالكيين بدلاً عنهم، و أنشأتُ مدارس الإسلام السُّنِّية: الشافعية و المالكية.. و عزلتُ القُضَاة الروافض و ولَّيتُ الفقيه الكبير عيسى بن محمد الهكاري قضاءَ القاهرة، فاستناب القُضَاة الشافعيين في جميع أرجاء البلاد.. و لما كان أذان الروافض باطلاً و محرَّفاً بقولهم (حيَّ على خير العمل) عوضاً عن (حيَّ على الفلاح) أرجعتُهُ إلى أصله الصحيح الذي لا يختلف فيه مُسلمان.. ثم قرَّرتُ أن يذكر الخطباء في خُطَبِهم أبا بكر و عمر و عثمان ثم علي، و الترضي على جميع الصحابة و أمهات المؤمنين، و أن يُذكر العاضد بكلام يحتمل التلبيس على الروافض بأن يقول الخطيب: اللهم أصلح العاضد لدينك، و نحو ذلك.. بعدها أخذتُ في منع الدعوة للعاضد في الخطب و نقلها إلى الخليفة العباسي رويداً حتى أمضيتُ ذلك كاملاً بتوفيق من الله

تعالى خلال جُمُعتين متواليتين، فما اعترضَ معترضٌ و لا ثار ثائرٌ من الروافض لذلك، ومن العجيب أنَّ نقلَ الدعوة في الخطبة إلى الخليفة العباسي اتفق مع وفاة الملك العاضد يوم عاشوراء، فبعثتُ بالبشارة إلى مولاي الملك العادل نور الدين الذي بعث بها هو الآخر إلى الخليفة العباسي المُستضيء ببغداد، فأرسل هذا الأخير في جواب البشارة الخِلَعَ و التشريفات إلى الملك العادل و إليَّ، و أعلاماً و بُنوداً إلى الخطباء في مصر، و حَصَل ذلك في سنة ثمانٍ و ستين (567هـ).

- بالمناسبة مولاي السلطان.. إني أحفظُ أبياتاً جميلةً لوزيرك العماد الأصفهاني ذكرها بعد زوال مُلكِ العُبيديين و رجوع مصرَ إلى حضن الخلافة العباسية.

- حقًّا؟!.. هاتِ ما عندك!

- لقد قال:

توفي العاضد الدَّعي فما *** يفتح ذو بدع..

لم أكدْ أتِمُّ البيتَ الأوَّلَ من شعر العماد حتى دخل علينا شيخٌ كبيرٌ تفوح منه نسائم التقوى و الصلاح و الوقار.. فقام السلطان من جلسته لقدومه كعادته في القيام لكلِ من يدخل عليه من العلماء.. أما أنا فقد صُعِقتُ عندما علمتُ من كلام السلطان مع الشيخ أنَّ هذا الأخير هو..

هو العماد الأصفهاني نفسه!!

ثم لم يتوانى السلطانُ في سؤال العمادِ أن يُنشِده أبياته التي نظمها يوم زوال دولة العُبيديين بمصر.. فابتسم الشيخُ الجليلُ ابتسامة العظماء ثم أخذ يُنشد السلطانَ قائلاً:

توفي العاضدُ الدَّعي فَما ... يفتحُ ذو بدعةٍ بمصرِ فَما
و عصرُ فرعونِها انقضى و غدى ... يوسفها في الأمور مُحتكِما
قد فئت جمرة الغواة و قد ... داخ من الشرك كل ما اضطرَما

و صار شمل الصلاح ملتئماً بها و عقدُ السداد منتظِما
لـما غدا مشعراً شعار بني العباس حقًّا و البطل اكتتما
و بات داعي التوحيد منتظرًا و من دعاة الإشراك منتقما
و ظل أهل الضلال في ظلل داحية من غبائه و عمى
و ارتكسَ الجاهلون في ظلم لـما أضاءت منابرُ العلما
و عاد الـمُستضيء معتلياً ببناء حقٍّ بعدما كان منهدما
أُعيدت الدولة التي اضطُهِدت و انتصر الدين بعدما كان اهتفما
و اهتزَّ عطف الإسلام من جلل و افتر يغر الإسلام و ابتسما
و استبشرت أوجه الهدى فليقرع الكفر سنه ندما
عاد حريم الأعداء منتهك الهدى و في الطغاة منقسما
قصور أهل القصور أخربها عامر بيتٍ من الكمال سما
أزعج بعد السكوت ساكنها و مات ذُلًّا و أنفه رغما

أجهشَ مولاي السلطان بالبكاء بعد سماعه أبيات العماد الأصفهاني.. و انهمرت دموعه على خدَّيه كالسيل الجارف حتى أشفقنا عليه.. فقد تذكَّر توفيق الله له بإزالة دولة العبيديين الروافض و استخراج البلاد الـمصرية المسلمة من قفص كفرياتهم و انحرافاتهم العقَدية الخطيرة و جرائمهم بحق الناس، إلى سِعَةِ التوحيد الخالص و العقيدة الصافية و العدل الذي أمر به الله و رسوله.. و تذكَّر أنَّ ذلك كان سببًا رئيساً و عاملًا أساسياً أدَّى إلى تخليص بيت المقدس من الصليبيين الكفار و إعادته إلى حضن دولة الإسلام و الـمسلمين.. و تذكَّر أنَّ ذلك تمَّ على يديه في عهد نور الدين دون سواه، و كأنَّ لسان حاله في تلك اللحظة يقول: مَن أنا حتى يجعلني الله تعالى سبباً في نصرة دينه باستئصال الروافض من مصر و إخراج الكَفَرَة من القدس؟!!

لم يستطِع الشيخ العماد الأصفهاني أن يتحمل منظر بكاء السلطان فخرج من فوره، و مكثتُ أنا وحيداً معه أتأمل بكاء هذا الملك العظيم - الذي قهر الكُفَّار و أرعَبَهُم- و كأنَّه صبيٌّ من الصبيان.. و لكنني سرعان ما لحقتُ بالعماد و خرجت من الخيمة تاركاً السلطان مستغرقاً في بكائه ريثما يستقيم مزاجه ثم أعودُ إليه ليُكمِلَ لي بقية الحديث عن فتح مصر على يديه..

بعدها عدتُ إليه وقد استقبلني-كعادته- بوجهٍ بشوشٍ قد نحتَ البكاءُ خطَّيْن أسوديْنِ تحت عينيه، و قال لي:

- لعلَّك لم تتحمَّل مَنظرَ بكائي فخرجتَ وراء العماد؟.. و لكنني تذكَّرتُ الأيامَ الخوالي لـمَّا كنتُ جنداً من جنود الملك العادل نور الدين، ففتح الله علينا بلادَ مصر، و أكرمنا بالنَّصر على أعداء الإسلام و الزنادقة الفُجَّار دونما حولٍ منَّا نحن العباد الضعفاء و لا قوة، فكان ذلك دليلاً على أنَّنا على الطريق المستقيم.. و إنَّا بعدُ لماضون في نصرة الإسلام و المسلمين إلى أن يأذن الله بأخذ أرواحنا من أجسادنا.

- أي و الله إنَّكم لكذلك! و قد أشفقتُ عليك مولاي السلطان جراء بكائك، و ذكَّرتني ببكاء الخلفاء الراشدين و الملوك الأتقياء، و من قبلك الملك العادل نور الدين بن زنكي.. و لعمري ما يُبْكِيَنَّ العظماءَ إلا عظيمُ الأمور و جليلُ الخُطُوب!

- و أين أنا-بالله عليك- مِن أولئك الفضلاء الأتقياء العِظَام؟!.. فتالله لو علمتُ نجاتي من عذاب الآخرة لاستكثرتُ ذلك على نفسي و استعظمتُه، فما بالك بأن أكون في صلاح و تقوى أولئك الذين ذكرتَ ممن نحسبُهُم من الصِّدِّيقين و الشهداء و الصالحين!

- كلا مولاي السلطان.. إنَّ بكاءَ مَن هو مثلُكَ في الصلاح و التقوى و الجهاد و العدل شكراً لله و حمدًا لَهُوَ عين العظمة البشرية و دليلٌ على التواضع و النُّبل و البُعد عن الكِبر و الغرور.. لا أقولها مجاملةً أو أدباً بقدر ما أقولها اقتناعاً و تسليماً و تصديقاً.

- ده عنك هذا.. هل تودُّ سماعَ بقية الحديث عن أيامنا بمصر؟

- حبذا مولاي السلطان!

- لقد كان دخولنا مصرَ فاتحين منتصرين سببًا في خوف الافرنج من أن نقصدَهُم و نُخرِّب ممالكهم بعد أن نُطوِّقَّهم: نحن من مصر، و الملك العادل من داخل الشام.. و جرى الاتفاق بين بينهم و بين ملك الروم على نزول دمياط برًّا و بحرًّا، و أعدُّوا للحملة بمكاتبة إفرنجِ الأندلس و صقلية و غيرها يستمدُّونهم بالمال و الرجال و الدواب المحمَّلة بالسلاح، فضلًا عن الدبابات و المناجيق و آلات الحصار الثقيلة و المراكب البحرية الكبيرة، فنزلوها في أول شهر صفر من سنة خمسٍ و ستين (565هـ) و حاصروها حتى ضيَّقوا على أهلها، و قطعوا عنهم المؤونة و الطعام، و قتلوا من المسلمين قتلاً كثيرًا.. فلما علمتُ بخبر الحصار جعلتُ غاية همِّي أن أمِدَّ المقاومين بدمياط من السلاح و الأبطال و الفرسان ما آمَنُ معه عليها، ثم طلبتُ المَدَدَ من الملك العادل بالشام و أعلمتُهُ بأنِّي إن تخلَّفتُ عن دمياط مَلَكَها الافرنجُ، و إن سرتُ إليها خلفني في مُخلَّفي و عسكري بالشر و السوء و خرجوا من طاعتي، و ساروا في إثري، و الافرنج أمامي، فلا يبقى لنا بعدها باقية.. فسيَّر الملكُ العادل العساكر إليَّ و غزا هو بنفسه بعض ممالك الافرنج و قلاعهم تخفيفاً عن أهل دمياط المُحاصَرين و تثقيلًا على الافرنج الذين يُحاصرونهم رفقة الروم حتى يكفُّوا عن ذلك و يولوا الأدبار.. فلما رأى الافرنج تتابع العساكر إلى دمياط و غزوَ الملكِ العادلِ لقلاعهم بالشام و سلبها و نهبها رجعوا إلى ديارهم خائبين و وجدوها خاويةً على عروشها.. و رجع برجوعهم الرومُ أيضًا.

- و هل يتَّسِعُ صدرُ مولاي السلطان كي أسأله عن بعض القضايا التي لم أقفْ على صِحَّتِها بعدُ؟!

- سَلْ يا أخي! إني أسمعُك.

- قد سمعتُ يوماً أنَّه كانت هنالك جفوةٌ و وحشةٌ بينك و بين الملك العادل نور الدين بعد تصفية الوجود العُبيدي بمصر، و أنَّ علاقته بك قد كدَّرتها التوترات و الخلافات حول ولائك له و نيابتك عنه، بل و زعمَ البعضُ بأنَّك رغبتَ في الاستقلال بمصر عن دولته، و مزاحمته السيادة على بلاد الشام!.. فهلَّا حدَّثتني عن حقيقة الأمر؟

- إنَّ من يتفوَّهُ بمثل تلك المزاعمِ هو أحدُ اثنين: إمَّا حاقدٌ ساءَهُ أن تكون بيني و بين الملك العادل محبَّةٌ في الله و إخلاصٌ في نصرة دينه و تعاونٌ على دحر الكفار، و إنَّ الحقدَ يهوي بالمرء إلى ما العياذ منه بالله.. و إمَّا ظانٌّ بي ظنَّ السوءِ فاتَّهمني بما ذكرتَ لي، و إنَّ بعض الظن إثم.. فلا تلتبسنَّ عليك الأمور.

- إذًا.. ما القضية؟

- إنَّني لم أزل نائبًا ملتزمًا و خادمًا مخلصًا للملك العادل نور الدين رحمه الله حتى توفي و فاضت روحه إلى بارئها، فلم تُحدِّثني نفسي قطُّ بأن أعصي له أمرًا أو أشق عصا طاعته، كيف لا و قد كان أتقى ملوك المسلمين، و أحبَّهُم للقلوب، و أقربُهُم للناس، و أكثرهم عدلًا، و أشدُّهم وطأةً على الكفار، و أعلاهم همَّةً في نصرة دين الله، و أطهرُهُم لسانًا و بُعدًا عن الفحش، و أقومُهُم خلقًا!.. و لما صرتُ وزيرًا و نائبًا له على بلاد مصرَ عملتُ على طاعتِهِ في كلِّ ما يأمر به، لم أخرج عن أمرِهِ قيد أنملةٍ، و غالبًا ما كنتُ أرجعُ إلى آرائه المتينة.. و في خضمِّ اجتهادي لإزالة دولة الشيعة العُبيديين أُعجِبَ بما أقدمتُ عليه من إجراءات إلى الغاية، و طلب من مولانا القاضي شرف الدين بن أبي عصرون مساندتي في ذلك الأمر الجَلَل و مساعدتي عندما ولَّاه قضاء مصر، و قد حكيتُ لَكَ إرسالَهُ للكتب إليَّ يطلبُ منِّي العجلةَ في

إقامة الدعوة للخليفة العباسي، فقُمتُ بذلك على أتمِّ وجهٍ و أكملِهِ بتوفيقٍ من الله، ففرح به الـملكُ العادلُ و استبشر.. و لكن بعدها رأيتُني في أمسِّ الحاجة لإنفاق الأموال على ما أراهُ مهمًّا لتثبيت أقدامنا في الحكم، و لاستقرار البلاد و هدوئها و سكونها، فلم أزل أنفِقُ و أصرفُ على الناس و على الأمراء حتى رأى مولاي الملك العادل في ذلك إسرافًا و إفراطًا وأنكرَهُ؛ لأنَّه كان يرى أولوية الإنفاق على جندِهِ المجاهدين في معاركه ضد الافرنج، فأرسل إليَّ وزيرَه الشاعر خالد القيسراني سنة تسعٍ و ستين (569هـ) ليُحاسبني و يقرِّرَ لي ما أدفعُهُ خراجاً سنويًّا للملك العادل، و حمَّلهُ بالتُّحف و الهدايا موجَّهةً إليَّ، فرأى الوزير بعينَيهِ عِظَمَ ما تستوجبه البلاد من إنفاق الأموال و صرفها.

- ثم ما قصةُ عزمِ الـملك العادل -حسبما بَلَغَني- على دخول مصرَ في ذلك الحين؟

- لقد واعدني الـملك العادل مطلع سنة سبعٍ و ستين (567هـ) أن نغزوَ الافرنج في حصني (الكرك و الشوبك) معًا من جهتين، كلٌّ بعسكره و جُندِه، فخرجتُ قاصدًا حصن الكرك بعدما أبلغتُهُ خبرَ مسيري من القاهرة ليسيرُ هو من دمشق في نفس الوقت.. فلما وصَلَ إلى الحصنِ أقام منتظرًا وصولي، و لكن من جانبي فقد اعتراني الخوفُ و القلقُ من أن ينقلبَ الكارهون لحكمي عليَّ فيستولون على شؤون البلاد و قواعدها فيما أنا بعيدٌ عنها، فأعاقَ ذلك مسيري و أرسلتُ إلى الـملك العادل بكتابٍ اعتذرتُ لهُ فيهِ عن مواصلة المسير، و أني عائدٌ إلى مصر للسبب الذي ذكرتُه لك سالفًا، و لكنني أُعلمتُهُ بأنِّي سأعود في العام الـمُقبل فأغزو معه حصنَيْ الكرك و الشوبك..

- و لـماذا تم اختيار هذين الحِصنين دون سائر الحصون و البلاد الافرنجية؟

- ذلك لأنهما كانا أقرب حصون الافرنج إلى مصر، و هما يتوسطان الطريق بين مصر و الشام بما يجعل أمر اتصال هتين الجبهتين ببعضهما البعض منوطًا بالاستيلاء على الحصنين و طرد الكفار منهما.. إضافةً إلى تضييق الافرنج الـمُتكرر على قوافل الـمسلمين الـمارَّة

بالطريق حتى بلغ الأمر أن أخرج بنفسي لأؤمِّنَها و أحميها منهم حتى يبلغوا مقاصدهم بأمان و سلام، فـ..

قاطعتُ كلامَ مولاي السلطان.. أو بالأحرى قاطَعَ فضولي كلامَهُ فسألتُهُ:

- و كيف استقبَلَ الـملكُ نور الدين عُذرَك بالعَوْد من الغزو؟

- إنَّ لذلك قصةٌ أخرى تتعلق بوالدي نجم الدين أيوب و خالي شهاب الدين الحارمي و غيرهما مِـمَّن اجتمعتُ بهم بعد أن وردني خبرُ عزمِ الـملك العادل على الـمجيءِ إلى مصر.. و لكنك تستعجل معرفة ما جرى يا أخي!

- عذرًا مولاي السلطان.. فمن فرطِ تركيزي على كلِّ حرفٍ تقولُـهُ و شوقي الشديد إلى معرفة الأحداث تجِدُني أقاطِعُكَ لأسألك!

- لا عليك.. الـمهمُّ أنَّه بعدَ رجوعي إلى مصر و اعتذاري إلى الـملك العادل بلغَني عزمُهُ و سعيُهُ إلى قصدِ البلاد الـمصرية بجيشِه، فاجتمعت ساعتئذٍ بوالدي و خالي و جمعٍ من الأمراء و أعلمتُهُم بإمكانية قصدِ الـملك البلادَ و استشرتُهُم في الأمر، فكانت جماعةٌ منهم يُشيرون بقتاله و صدِّهِ عن الدخول، و لكني كنت مـخالفًا لهم و أنكرتُ عليهم قولهم جدًّا، ثم أقبَلَ عليَّ والدي نجم الدين و حثَّني على ما أنا مقتنِعٌ به من ضرورة السمع و الطاعة للملك العادل، و أمَرَني أن أكتُبَ له كتابًا أقول فيه: «بَلَغَنِي أَنَّكَ تُرِيدُ الـحَرَكَةَ لأَجْلِ البِلَادِ، فَأَيُّ حَاجَةٍ إلى هَذَا؟.. يُرسِلُ الـمَوْلَى نجَّابًا يَضَعُ فِي رَقَبَتِي مِنْدِيلًا وَ يَأْخُذُنِي إلَيْكَ، وَ مَا هَا هُنَا مَنْ يَمْتَنِعُ عَلَيْكَ». ثم قال للجماعة كلهم صائحًا: «قُومُوا عَنَّا! فَنَحْنُ مَـمَالِيكُ نُورِ الدِّينِ وَ عَبِيدُهُ، وَ يَفْعَلُ بِنَا مَا يُرِيدُ».. فتفرَّقوا على هذا، و لـما وصل الخبرُ إلى الـملك العادل نور الدين عدل عن قصده و استقرَّ في الشام.

- لله درُّ والدِكَ نجم الدين أيوب مِن رجلٍ كُلُّهُ ولاءٌ و طاعةٌ للملك العادل!.. و قد بلغني أنَّ من أعجب ما شهدَهُ الناسُ من الأيام يوم مجيء والدك إلى مصر في عهد نيابتك للملك العادل.. فحدِّثني -جزاك الله خيراً- عما جرى ذلك اليوم فإنه لا يروق لي سماعُهُ إلا منك!

- إنَّك تعرفُ الكثير عنا و عن أيامنا في الماضي!

- نعم مولاي السلطان.. بل الأمةُ كُلُّها تعلم بعد أن سارت الركبانُ بأخبارُكُم و أفعالِكُم من يومِ توليتَ الوزارة بمصر و أفلحتَ في القضاء على العُبيديين.

- حسنًا.. بعد أن أصبحتُ نائبًا للملك العادل على مصر طلبتُ منه أن يُسيِّر والدي نجم الدين و أهلي و جماعة من أصحابي إليَّ، فاستجابَ لطلبي و جهَّزهم للسَّفر ثم رافقهم مسافةً غير قصيرة حتى يؤمِّن لهم الطريق من خطر الافرنج، فحاصر هو حصن الكرك فيما تابعوا هم المسير سالمين حتى وصلوا إلى مصر أواخر رجب من سنة خمسٍ و ستين (565هـ)، فاستقبلتُهُم و استقبَلَهُم معي الملك العاضد الشيعي بعد أن طلبتُ منه ذلك في خضم خطتي لإذلاله و قرضِ مكانته في نفوس الناس كما ذكرتُ لك سابقًا، و بمجرد لقائي بوالدي عرضتُ عليه تولي أمور البلاد كلِّها، فأبى ذلك و قال: «يَا وَلَدِي! مَا اخْتَارَكَ اللهُ تَعَالَى لِهَذَا الأمْرِ إلَّا وَ أنْتَ أهْلٌ لَهُ، وَ لَا يَنْبَغِي أنْ تُغَيِّرَ مَوْضِعَ السَّعَادَةِ». و لكنني أقطعتُهُ الإسكندرية و دمياط و البحيرة، و أفردتُ له دارًا بجانب داري في القاهرة، و لقَّبَهُ الملك العاضدُ بالأفضل، فكان ذلك اليوم يومًا مشهودًا.

- سبحان الله! تبدو قصة اجتماعك بأبيك نجم الدين أيوب شبيهةً بقصة اجتماع نبي الله يوسف عليه السلام بأبيه يعقوب عليه السلام لما كان الأول متملِّكًا لشؤون البلاد المصرية، فقال أبوه لأهله و أولاده لما دخلوا البلاد: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوْا عَلَى يُوسُفَ آوَى إلَيْهِ أبَوَيْهِ وَ قَالَ ادْخُلُوْا مِصْرَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِيـنَ﴾ [يوسف:99].. بل إنَّك و يوسف النبي تتفقان في الاسم!

- ذلك أيضاً ما سمعتُهُ مِن أفواه الناس بعد أن التقينا أنا و والدي.. فسبحان الله.

- و لكن مولاي السلطان قد سمعتُ أنَّ والدَكَ نجم الدين كان متشائماً بك يوم ولادتك.. فما خبرَ ذلك؟

ابتسم مولاي السلطان و انفرجت أساريرُهُ بعد طرحي هذا السؤال عليه، و إنه كلما ابتسَمَ عظُمَ في نفسي و زاد إعجابي به فوق إعجاب، و لا تكاد تمرُّ ساعةٌ عليَّ و أنا جالسٌ معه إلا و أراه يزدادُ تواضعًا و رحابة صدرٍ للحديث .. ثم قال:

- إنَّ القصة تبدأُ من سنة اثنتين و ثلاثين (532هـ) في قلعة تكريت حيث أقدَمَ عمي أسد الدين شيركوه على قتلِ أميرٍ مملوكي تعرَّض بالكلام القبيح لإحدى الجواري عند باب القلعة، و ذلك في أيام تولي والدي نجم الدين شؤون القلعة بأمرٍ من شحنة بغداد مجاهد الدين بهروز.. فقام والدي بحبس عمي و بعَثَ بالخبر إلى بهروز، فأمرَهُما هذا الأخير بمغادرة القلعة فغادراها إلى الموصل، و السبب في اختيارهما للموصل هو مساعدتُهُما لصاحبها الأتابك عماد الدين زنكي -والِد الملك العادل نور الدين- عندما هُزِمَ و هرب من أمام جيش الخليفة العباسي المسترشد بالله سنة ستٍّ و عشرين (526هـ).. فاستقبَلَهُما الأتابك زنكي صاحبُ الموصل استقبالًا حافلًا، و أحسنَ إليهما و أقطعَهُما بعض الإقطاعات.. و أما فيما يخصُّ يوم ولادتي فإنَّ ذلك اتَّفق مع خروج والدي مع عمي و أهله من قلعة تكريت، فتشاءم لذلك و تطيَّرَ لِما جرى عليه، و لكن كان له كاتبٌ نصرانيٌّ لما رأى تشاؤمه بي قال له: يا مولاي! قد رأيتُ ما قد حدث عندك من الطِّيَرَة بهذا الصبي، و أيُّ شيءٍ له من الذنب، و بم استحقَّ ذلك منك و هو لا ينفع و لا يضر و لا يُغني شيئاً! ثم ما يُدريك أنَّ هذا الطفل يكون ملكًا عظيم الصيت، جليل المقدار!!.. و قد حكى والدي هذه القصةَ في دار الوزارة بمصر بعد مجيئه إليها أمام الوزراء و العلماء و الأكابر، و كان كاتِبُهُ النصراني حاضرًا معنا يومئذٍ، فتعجَّب الجميع من هذا الاتفاق.

- سبحان الله! رغم تنصُّر كاتب والِدِكَ إلا أنَّ كلامَهُ صدَّقهُ الغيبُ بحذافيره.

- صحيح، و لله في خلق شؤون.

- و لكن لم تُكمِل لي مولاي السلطان الحديث عما جرى بعد رجوعك من غزو الإفرنج إثر خوفك على البلاد المصرية من بقايا العبيديين و المصريين الذين كرهوا وزارَتَك.. فهل عُدْتَ إلى الغزوِ في عامك التالي كما أخبرتَ بذلك الملكَ العادل؟!

- نعم.. لقد أرسلتُ إليه في شهر شوال من سنة ثمانٍ و ستين (568هـ) أُعلِمُهُ بقصدي لحصن الكرك الافرنجي تنفيذًا لما التزمتُهُ له في العام الفارط،، و اننا سنلتقي عنده في الوقت المعلوم، فوافقني و خرجَ هو الآخر من دمشق قاصدًا حصار الحصن من الجهة الأخرى، فما هي إلا ساعات قليلة على بدئي للحصار حتى اعترضني عائقٌ عن مواصلة الحصار، و لكن الأمر هذه المرة يتعلق بوالدي نجم الدين أيوب..

- و ما الذي حصل؟

- لقد بلغني أنَّ والدي مرِض مرضًا شديدًا، فخفتُ أن يحدث عليه حادث الموت فتخرج البلاد عن أيدينا و ينقلب على حكمنا مَن فَضُلَ من العُبيديين الروافض؛ إذ أني قبل خروجي استنبتُ والدي و استخلفتُهُ على البلد.. فلما بلغني مرضُهُ بعثتُ إلى الملكِ العادل الفقيهَ عيسى الهكاري لكي أبسطُ إليه عذري و أبلغُهُ سبب رجوعي، فقبل الملكُ العادل عُذري و صدَّق موقفي بقوله: «إنَّ حِفْظَ مِصْرَ أَهَمُّ عِنْدَنَا مِنْ غَيْرِهِ».

- و ماذا بشأن مرضِ والدِكَ نجم الدين؟

- لقد..

توقف السلطان عن الكلام و بدأت عيناه في الاغريراق، ثم أكمل قائلًا:

- لم أكَد أصلُ إلى مصر حتى علمتُ بوفاة والدي، و كان ذلك يوم الأربعاء السابع و العشرين من ذي الحجة.. و أخبروني أنَّ سبب مرضه هو وقوعه من فوق فرسِهِ عندما كان

يلعب الكرةَ، و هو مع كِبَرِه كان شديد الركض و مولعًا بلعب الكرة.. فشقَّ ذلك عليَّ و ألـمَّ بي غيابي عن يوم وفاته، فرحمة الله عليه و قدَّس الله روحه وأنار قبره.

- آمين.. و أينَ تم دفنُهُ بالـمناسبة؟

- دُفِنَ إلى جانب قبر أخيه و عمي أسد الدين شيركوه ببيتٍ من بيوت دار الإمارة، ثم بعدها بسنوات نُقِلَا معًا إلى الـمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة و السلام.

- و هل تأذنُ لي مولاي السلطان بإنشاد بعض ما مدَحَ الشعراءُ و رثوا به أباكَ نجم الدين أيوب و أسرتَه؟ فإني قد حفظتُ من ذلك الشيء اليسير.

- بالتأكيد.. لك ذلك!

- قال أحدُهُم راثيًا:

هي الصدمة الأولى فمن بانَ صبرُهُ ... على هول ملقاها تضاعفَ أجرُهُ

أذُمُّ صباحَ الأربعاء فإنَّه ... تبسَّمَ عن ثغر المنيَّة فجرُهُ

أصاب الهُدَى في نجمه بمصيبةٍ ... تداعى سماكُ الجوِّ منها و نسرُهُ

فلا تعذُلونا و اعذُرونا فمن بكى ... على فقدِ أيوبٍ فقد بانَ عُذرُهُ

أقام بأعمال الفرات و خيلُهُ ... يُراعُ بها نيلُ العزيز و مِصرُهُ

إلى أن رماها من أخيه بضَيْغمِ ... فرى نابُهُ أهلَ الصليب و ظُفُرُهُ

فلما قضى نحبَس حياةٍ و دولة ... بأمرك في إدراكها تمَّ أمرُهُ

تعاقبتُما مصرًا تعاقُبَ وابلٍ ... يبيتُ بقُطرِ النِّيل ينهلُّ قَطرُهُ

نزلتَ بدارٍ حلَّها فحَلَلتهَا ... فمغناك مغناهُ و قُطرُ قُطْرُهُ

و واخيتَهُ في البرِّ حيًّا و ميِّتًا ... فقبرُكَ في دارِ القَرارِ و قبرُهُ

و قد شخصت أهلُ البقيع إليكما ... و إلَّا فسكَّان الحَجُون و حِجرُهُ

هنيئًا لملكٍ ماتَ و العزُّ عزُّهُ ... و قُدرتُهُ فوق الرِّجالِ و قَدرُهُ

و أدركَ مــن طــول الحيــاة مُــرادَهُ　　و مــا طــال إلا في رضــا الله عُمــرُهُ
و أسـعدُ خلـقِ الله مَـنْ مـاتَ بعـدما　　رأى في بنــي أبنائــه مــا يسُــرُّهُ

و قال قبلها مادِحًا:

ثغــرُ الزمــان بــنجم الــدين مبتســمٌ　　و وجهُــهُ بــدوام العــزِّ مُتَّســمُ
أضحى بك النيلُ محجوجًا و مُعتمرًا　　كأنَّمــا حــلَّ فيــه الحلُّــو الــحَرَمُ
جـاءت بنـوك و شـملُ الـدِّين منتشـرٌ　　فقــارعوا عنــه فهْــوَ اليــومَ منــتظمٌ
و مــا درى أحــدٌ مــن قبــل رؤيــتهم　　أنَّ الحظــوظَ بِلَــثْمِ الأرضِ تُقتسَــمُ
نامـت عيـون الـورى في عـدل سـيرتهم　　كــأنَّ يقظتنــا في عصــرهم حُلُــمُ
و النَّاصر ابنُكَ كـ..

قاطَعَ إنشادي السلطانُ لـما وصلتُ إلى مدحِ الشاعر لهُ.. فعلمتُ أنَّه كره سماع ذلك تواضُعًا منه، و تقليلا مِن شأنِه و نفسِهِ.. ثم قال لي:

- و هل تعرِفُ صاحب تلك الأبيات في مدحِ و رثاء والدي؟

- أظن أنَّه.. الـ.. كلَّا مولاي السلطان.. لم أعرِفهُ، و إنما حفظتُها دون أتحقق من قائلها.

- إنَّ صاحبَها هو عمارة بن أبي الحسن اليمني!

- أحقًّا ما تقول مولاي السلطان؟!.. أليس.. أليس ذاك هو الفقيه عمارة اليمني الذي حاول إعادة دولة العُبيديين في مصر بعد قضائكم عليها؟..

- نعم، هو بذاته و صفاته!

- و لكـ.. و لكن كيف يستوي أن يمدحَكُم عمارةُ و يمدح حُكمَكم و عدلَكم و يكون في ذات الوقت متربصًا بكم يريد الانقلاب عليكم و إعادة حُكمِ الروافض العُبيديين، رغم أنَّه سُنِّيٌّ شافعيٌّ لا شيعيٌّ رافضي.. فمن الـمُفترض أن يكون هَوَاهُ معكم لا مع العُبيديين؟!

- نعم لقد كان عمارة اليمني عالِمًا سُنِّيًا و فقيهًا شافعيًّا، شاعرًا، و أديباً أريبًا.. و لكنَّه هوى بنفسِهِ حتى أضحى طالبًا للمناصب و المصالح، فكان مُدلَّلاً في بلاط العُبيديين؛ يُغدِقون عليه بالأموال السخيَّة بعد أن يمدحَهُم هو بالأشعار الناعمة الشَّجيَّة.

- إني أحفظ له مقولته في العُبيديين.. قال:

أفاعيلُهُم فِي الجُودِ أفعَال سُنَّةٍ وَ إنْ خَالَفُوني في اعتقاد التشَيُّعِ!

- نعم.. و لكنه لم يزل على ذلك الغِنَى و التدليل هو و جماعة من أصحابه حتى أتينا نحنُ عساكر الملك العادل نور الدين من الشام و قضينا على دولة بني عُبيد و أنصارها، فقُضِيَ على مصالح عمارةَ و أصحابِهِ تبعًا لذلك، فلم تزل هذه الجماعة حانقةً علينا و متربصةً بنا الدوائر حتى اتفقوا في اجتماعٍ لهم بينهم على إعادة دولة العُبيديين والإطاحة بنا.. و لكن لم ألبث أن أحسستُ بما همُّوا به و رابَني أمرُهُم، فأمرتُ بصلبِهِم بعد تأكدي من قصدهم الشرَّ، و قد أفتى لي بذلك العلماءُ الفقهاء، و كان ذلك في مستهل شهر رمضان من سنة تسعٍ و ستين (569هـ).

- قبَّحهم الله! يفرحون بالعطايا و الأموال حتى و إن كانت في دولةٍ يُحيي أصحابُها البِدعَ و المُنكرات.. و يسخطون لضياعها بمجيء دولةٍ سخَّرَها اللهُ لإماتة تلك البدع و المُنكرات، و تنفيذ شريعتِه، و جهاد أعداء دينِهِ، و إقامة العدل بين الناس!.

- نعم، قد يكون ذلك من العجب بمكان، و لكنه متوقعٌ من أشباهِ عمارة اليمني الذي كان الأحرى به أن يترفَّع بعلمِهِ و فقهِهِ عن الدنيا و حُطامها، لا أن يؤثِرَ حُطامَ دُنياه على حساب دينه و آخرته.. و أن يُساهم في بناء دولة الإسلام القوية، لا أن يجتهد في إعادة دولة الكفر البواح و المُنكر القبيح.

- مهلاً!.. لقد دنا موعد صلاة الظهر يا مولاي.

- هو كذلك.. فلنقُمْ إلى المسجد.

نهضنا و خرجنا من الخيمة متوجهين صوب المسجد الأقصى المبارك.. فأذَّن المؤذن بعد وُصولنا بقليل، ثم تقدَّم القاضي الفاضل و صلى بنا.. و بينا أنا و السلطان و جمعٌ من أمرائه و وزرائه في طريق عودتنا للخيمة إذ بَلَغَ السلطانَ خبرُ رحيل ملك الانكتار ريتشارد قلب الأسد من مدينة يافا باتجاه عكا، و هو الملك الذي قاد الحملة الصليبية الثالثة و استطاع احتلال المدينتين السالِف ذِكرُهما و نزعهما من قبضة السلطان صلاح الدين، و لكن هذا الأخير لما سمع الخبرَ وجد أنَّ الفرصة سانحةٌ لإعادة فتح يافا، و عزم على تنظيم حملةٍ لذلك، خصوصًا و أنَّ المفاوضات بينه و بين الملك الصليبي ريتشارد حينئذٍ كانت تعترضها بعض العقبات و الحواجز، و هنا توجهت بالسؤال إليه قائلًا:

- و هل ينوي مولاي السلطان غزو يافا حقًّا؟

- أجل

- و لما؟

- يا أخي! إنني لا أطيق القعود أيامًا دون غزوٍ أو جهادٍ، كما لا أرضى جلوسي بالخيمة و الافرنج يقتلون المسلمين و يحتلون أراضي الإسلام.. ثم إنَّ الحرب بيننا و بين ملك الانكتار مازالت قائمةً و لو توافقنا على السلم و المهادنة أحيانًا، و ها نحن إذ قد علمنا بخروجه من يافا التي انتزعها منَّا مؤخرًا فالواجب هو أن نجاهد في سبيل الله لنستردَّها و نُعيدها إلى حضن الإسلام ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

- وفَّقكم الله و أيَّدكم بنصره على أعدائه!

اقتنعتُ بكلام مولاي السلطان الذي جهر به أمام جموع الأمراء و العلماء.. فتجهَّز المجاهدون و على رأسهم السلطان و انطلقوا إلى يافا، و بقيتُ أنا في القدس أدعوا لهم بالتوفيق و النصر في كل صلاة أصليها بالمسجد الأقصى، و دام ذلك بضعة أيامٍ قبل عودة السلطان صلاح الدين من غزوته..

و لكن..

لم يكن مشهد عودة السلطان و مَن معه مِن الجاهدين مألوفاً لي و للناس الذين كانوا في استقباله.. فمَخايل الخيبة و الغضب معًا كانت باديةً على السلطان.. و علامات الندم و الحسرة تعلوا وجوهَ المجاهدين.. و الصمت الذي عمَّ الجميع كان رهيبًا حتى أن أحدًا لم يتجرأ على سؤال السلطان أو مخاطبته بحرفٍ واحدٍ!..

قلتُ في قرارة نفسي: سبحان الله!.. سبق و أن رأيتُ السلطان باسمًا.. طليق الوجه.. حزينًا.. باكيًا.. و لكن هذه هي المرة الأولى التي أراهُ فيها غاضبًا و ساخطًا على أمرٍ لم أدرِ ما هو بعدُ!.. و لا يغضب السلطانُ صلاح الدين إلا لأمرٍ كبيرٍ..!

دخل السلطانُ خيمته و تبعه إليها خلفَه جمعٌ من العلماء و المشايخ، و عددٌ قليلٌ جدًّا من الأمراء و القواد الذين كانوا برفقته، و لكن الكثرة الباقية منهم لم يدخلوا على غير العادة، و بقوا في الخارج!.. فاستنتجتُ من ذلك أنَّ خلافًا حصل بينهم و بين السلطان ربما أدَّى إلى وقوع الهزيمة و الفشل في استرداد يافا.. و ذلك هو الذي أكَّده لي أحد الجنود الذين رافقوا السلطان في غزوته، و قال لي بصوتٍ هادئٍ يعكس أمارات الأسف و الشجن من داخله:

- لقد أفلحنا في فتح يافا خلال يومين فقط و طلب الافرنجُ منا الصلحَ، ثم بدأ الجنود في جمع الغنائم و الأسلاب، و لكن حَدَث أن رجع ملك الانكتار بجيشه فولَّينا راجعين مدبرين من المدينة بعد أن انهزمنا أمامه.. و في الغد عندما طلب مولاي السلطان من بعضنا الهجوم ردَّ عليه القائد الذي كنا منضوين تحت لوائه بنبرةٍ جافيةٍ حادَّةٍ: «قُلْ لِـمَمَـالِيكِكَ الَّذِينَ أَخَذُوا

أمْسُ الغَنيمَةَ وَ ضَرَبُوا النَّاسَ بالحمَاقَاتِ أنْ يَتَقَدَّمُوا فَيُقَاتِلُوا! إذَا كَانَ القِتَالُ فَنَحْنُ، وَ إذَا كَانَتِ الغَنِيمَةُ فَلَهُمْ؟!».. فذلك ما وافقهُ فيه كثيرٌ من القادة الآخرين مما أغضب مولايَ السلطان أيما غضب، و تسبَّب غضبُهُ هذا في رجوعنا من الغزوة، و إنا لله و إنا إليه راجعون.

- غفر اللهُ لهذا القائد! ما كان له أن يقول قولته تلك لمولاي السلطان في تلك الساعة التي كان الأحرى به فيها أن يكظم ما أبانَه في قولته و يثبت في جهاد الافرنج و يستميت، لا أن يغضب و يعطِّل الجهاد بسبب الغنيمة!

بعدها.. رأيتُ الأمراء الذين جرى بينهم و بين السلطان ما جرى من الخلاف و الاختلاف يدخلون خيمته واحدًا تلو الآخر..

عجبًا!.. ما الذي جعلهم يدخلون، و شجَّعهم على مقابلة السلطان وجهًا لوجه و قد حصل ما حصل؟!.. ترى ما السبب وراء ذلك؟!

ذهبتُ مهرولًا ناحية الخيمة لأرى المشهد عن كثب و أكتشف رد فعل السلطان، رغم أني لا أتوقع منه إلا اللين و الدماثة و الحسن في المعاملة، لا الغلظة و القساوة و الفظاظة.. و لكن أتدرون ماذا رأيت؟..

لقد رأيتُ الأمراءَ جاثين على رُكَبِهم كما السلطان، يَمُدُّون أيديهم إلى قصعةٍ كبيرةٍ فيها فاكهة كثيرة علمتُ أنها وَرَدَت من بعض بلاد الشام، و السلطان ينظر إليهم باسمًا متهلِّلَ الوجه لكأنَّما لم يحصل شيءٌ قطُّ بينه و بينه هؤلاء الأمراء الذين توقعوا الملامة و المعاتبة!!.. ثم ما هي إلا لحظاتٌ حتى أضحوا فرحين مسرورين بعد أن كانوا خائفين مترقبين!!

قلتُ في نفسي بعد أن شدهني المنظر: ما أعظمك مولاي السلطان!.. و ما أعظم أخلاقك و خِصالَك و تعاملك مع أمرائك و قوادك!.. و تالله إن مثلك أحرى به أن يُخلق في زمن الصحابة و التابعين!!

خرج الجميع بمن فيهم العلماء.. و بقيتُ منفردًا مع السلطان الذي أومأ إليَّ بالإقبال ناحيته و الجلوس حذوه كما جرت العادة عليه.. ثم بادرتُهُ بالكلام قائلًا:

- قد علمتُ مولاي السلطان بما حصل لكم في يافا، و حزنتُ لانكساركم أمام ملك الانكتار الكافر بعد إذ أفلحتُم في فتحها و دخولها.

- يا أخي! جلَّ من لا يُهزَم، و عزَّ من لا يُكسر.. و لكننا إن شاء الله ماضون إلى الجهاد دومًا حتى نستنقذ ما بقي من بلاد الإسلام، و لو كان في ذلك هلاكي و هلاك أهلي و أولادي.

- بارك الله في جهادك مولاي السلطان، وأيَّدك بنصره أينما حللت وارتحلت، و نفع بك أمة الإسلام ما حييتَ.. و لكن هل لنا أن نعود إلى ما كنتَ تقصُّهُ عليَّ من أخباركم الماضية؟!

- لا مانِع البتة.. فأين توقف بنا الكلام؟

- لقد حدَّثتني عن عمارة اليمني و جماعته و محاولتهم الفاشلة للانقلاب على حُكمِكم.. و لكنني أريدك أن تحدِّثني الآن عن فتحكم للبلاد النوبية، و البلاد اليمنية، و بلاد المغرب الأدنى.. فقلَّ أن يوجد في بلاد الإسلام اليوم من لم تصله بعض أخبار تلك الفتوحات أو لم يسمع بها.

- نعم.. فأما البلاد النوبية في الجنوب فقد كان ملوكها كفارًا من النصارى، و هم شديدوا الولاء للنصرانية والعداء للإسلام و المسلمين، فلما فتح الله علينا بلاد مصر رفضا لنوبيين دفع الجزية لنا، و جنحوا غير ما مرة للعصيان و التمرد، و أغاروا على بعض قلاع الإسلام و دياره، و كل ذلك دفعنا دفعًا لفتح النوبة و تنويرها بنور الإسلام و تخليص الناس من شرور أهلها، فسيَّرت إليها شهر جمادى الآخرة عام ثمانٍ و ستين (568هـ) أخي الأكبر شمس الدولة توران شاه، وهو -كما تعلم- ذو قدرٍ كبيرٍ من الشجاعة والبأس و عزَّة النفس، ففتح و سبى و أسر و غنم حتى بلغ أراضٍ لم تبلغها راية الإسلام من قبل ذلك اليوم..

- و أما بلاد اليمن؟

- و أما البلاد اليمنية فقد تغلَّب عليها ملكٌ شيعيٌّ يقال له عبد النبي بن مهدي بعد أن كانت في حكم أخيه من قبل علي بن مهدي، و كلاهما أساءا السياسة، و أفسدا الإدارة، و لكن الثاني بلغ به الغرور أن دعا إلى نفسه و أقام الخطبةَ له، و زعم أنَّه سيحكم الأرض قاطبةً.. فلما كان ذلك، و رأيتُ عندي من الجندِ و العتاد ما يسمح لي بغزو اليمن و إزاحة ذلك الحاكم عزمت على إرسال سرية تحت راية أخي الأكبر شمس الدولة توران شاه، وهو -كما تعلم- ذو قدرٍ كبيرٍ من الشجاعة والبأس و عزَّة النفس، فسيَّرتُ السرية في شهر رجب من عام تسعٍ و ستين (569هـ)، فنصرها الله نصرًا مبينًا على ملوكها المبتدعين، و أُسِر المسمى عبد النبي ثم قُتِلَ، و ساس توران شاه الناسَ سياسةً حسنةً، و نقل الخطبة إلى الخليفة العباسي المستضيء، و أرسل إليَّ بخبر ذلك الفتح، فكتبتُ أنا بدوري بذلك إلى الملك العادل نور الدين الذي فرح و استبشر و أرسل من يُخبر الخليفة العباسي بالأمر.. و لله الحمد أولًا و آخرًا.

- و بلاد المغرب الأدنى؟

- و أما المغرب الأدنى فقد أوكلت مهمة فتحه إلى شرف الدين قراقوش، و هو غلام المظفر تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب، فلم يزل يفتح المدينة تلو المدينة و القلعة تلو القلعة حتى بلغ بلاد قابس، و استمرَّت فتوحاته للبلاد زهاء تسع سنين و أثمرت عن فتح الكثير من أجزائها و لله الحمد و المنَّة.

- الحمد لله مولاي السلطان الذي وفقكم لفتح تلك البلاد.

- الحمد لله.. الحمد لله.

- و الآن هلَّا حدَّثتني عن آخر أيام الملك العادل نور الدين، وكيف استقبلتُم خبر وفاته رحمه الله؟ فكلُّ ما أعلمُهُ هو أنه توفي في نفس العام الذي هلاك فيه عمارة اليمني..

- نعم.. ففي آخر عامٍ من عمره أَمَرَ -قدَّس الله روحَهُ- بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح إسماعيل، و اتَّفق ذلك مع يوم عيد الفطر، فغُلِّقت محال و حوانيت دمشق أيامًا، و أقام الناسُ

الأفراح و البهجات، و ضُرِبت البشائر للعيد و الختان معًا، و مدَّ الملك العادل يومها سماطًا حافلًا، و القدرُ يقول له: هذا آخر عيد تشهده في هذه الدنيا!..ثم شرع غداتها في اللعب بالكرة كعادته مع بعض خواصه، و لكن ما أن رجع إلى القلعة حتى احتجب و اعتزل دون سابق إخطار، فمكث بداخلها و لازم أسبوعاً كاملًا حتى أخذته علة الخوانيق كما أخذت من قبلُ عمي أسد الدين، ففاضت روحه في شهر شوال، و انقلبت الأفراحُ أتراحًا، و البهجات همومًا.. فإنا لله و إنا إليه راجعون!

كانت هذه الكلمات و كأنها تخرج من فم مولاي السلطان بعد عسرٍ عسير.. تخرج و تفرِّق ما بين الواحدة و الأخرى منها لحظاتُ سكوتٍ هادئة توحي بالحزن و الأسف.. و لكن بعدها لم يكن مولاي السلطان الوحيد الذي دمعت عيناه حزنًا عليه.. فإني أنا الآخر انسكبت دموعي على خدِّيَّ انسكابًا يضُخُّها الحزن و الحسرة على وفاة هذا الملك العادل الذي لم يعرف التاريخ نظيرًا له إلا آحاد الآحاد من عظماء الإسلام!

ثم قلتُ للسلطان:

- هل تسمحُ لي مولايَ أن أنشدكَ بعض ما أحفظُهُ مما رثى به مولانا العمادُ الأصفهاني الملكَ العادل نور الدين؟

مسح مولاي السلطان دموعه و التفت إليَّ، ثم قال مجيبًا:

- تفضَّل أخي.. إني مصغٍ إليكَ.

- قال العماد:

الدينُ في ظلمٍ لغيبة نوره ... و الدهرُ في غممٍ لفقد أميره

فلينـدب الإسلامُ حاميَ أهلهِ ... و الشَّامُ حافِظَ مُلكه ثغوره

ما أعظم المِقدار في أخطاره ... إذ كان هذا الخطب في مقدوره

ما أكثر المتأسفين لفقد من ... قَرَّت نواظرُهُم بفقد نظيره

ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه ... أو ما كفاه الموت في تذكيره
مَن للمساجد و المدارس بانيًا ... لله طوعًا عن خُلُوص ضميره
مَن بنصر الإسلام في غزواته ... فلقد أصيب برُكنِهِ و ظهيره
مَن للفرنج و من لأسر ملوكهم ... مَن للهُدى يبغي فكاك أسيره
مَن للخطوب مذللًا لجماجها ... مَن للزمان مُسهِّلًا لوعُوره
مَن كاشفٌ للمعضلات برأيه ... مَن مُشرقٌ في الدَّاجيات بنوره
مَن للكريم و من لنعش عِثارِهِ ... مَن لليتيم و من لجبر كسيره
من للبلاد و من لنصر جيوشها ... مَن للجهاد و من لحفظ أموره
مَن للفتوح محاولًا أبكارها ... برواح غزوه و بُكوره
مَن للعُلا و عُهودها من للنَّدى ... و وفوده من للحِجا و وفوره
ما كنت أحسبُ نورَ دينِ محمدٍ ... يخبو و ليلُ الشرك في دَيْجوره

أُعجِب مولاي السلطان بكلمات العماد التى رثى بها نور الدين:

- طيَّب الله لسانك و لسان العماد!.. و أجمِل به من رثاءٍ قد قَالَه و قُلتَه!

- حفظك الله مولاي السلطان.. فماذا بعد وفاة الملك العادل نور الدين؟

- إنَّه -يا أخي- ما مِن مَلِك يموت في هذه الدنيا إلا و تقوم الأطماعُ في نفوس بعض خواصه و أمرائه بغية الاستئثار بمُلكِهِ، و تحيا الرغبات في نفوس أعدائه و خصمائه لفعل ما لم يستطيعوا فعله في حياة ذلك الملك، بل و قد تنقسمُ البلاد و تتفرق بعد موت ملكها.. و كل ما سبق-ما خلا الانقسام- حصل بعد وفاة الملك العادل نور الدين بدمشق؛ فإنه -رحمه الله- بعدما لم يُخلِّف سوى ابنًا واحدًا: و هو الملك الصالح إسماعيل الذي كان غلامًا صغيرًا لم يُناهز عُمُرُه إحدى عشرة سنة، و ابنةً واحدةً صغيرةً، و معهما زوجته بنتُ الأتابك معين الدين أنر أمير دمشق من قبل.. فبعدما لم يُخلِّف وراءه إلا هؤلاء الثلاثة أضحى الباب مفتوحًا-أو

هكذا ظُنَّ- أمام الأمراء الطامعين في الـحُكم و المُلك؛ فسار ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل و استولى على بعض مدن الجزيرة و قلاعها في صورة نصيبين، حران، الرها و الرقة.. و في دمشق نصَّب الأمراءُ الـملكَ الصالح إسماعيل و هو غلامٌ صغيرٌ -كما حدَّثتُكَ سالفًا- ملكًا و جعلوا الأتابكية و الوصاية عليه إلى الأمير ابن الـمقدم.. و في حلب سعى بعض أمرائها إلى نقل الـملك الصالح إسماعيل إليها لِيَظلَّ مقر الحكم فيها كما كان عليه الحال في حياة الملك العادل نور الدين رحمه الله، فأفلحوا في ذلك و نجحوا، و ساعدهم على ذلك صغر سنِّ الـملك الصالح و ضعفه.. أما الافرنج - خذلهم الله- فإنهم أظهروا الفرحة و السرور بموت نور الدين، ثم أطلقوا العنان لتطفُّلاتهم الـمشهودة و غزوا على الفور حِصنَ (بانياس)، فصدَّهُم المسلمونَ بالهدنة و المال و عادوا من حيث أتوا.. و لكن الـمصيبة التي توقَّعتُ حدوثها -و قد حَدَثَت- هي موالاة بعض أمراء الشام للافرنج و مكاتبتهم لهم ضدي، و ذلك بعدما توجَّسوا خيفةً منِّي إن أنا أقبلتُ على الشام فسوف أنفيهم من البلاد، أو أعزلهم عن مواقعهم، أو حتى أحْبِسَهُم في غياهب السجون! و لا ريب في أنَّ ذلك التوجس لم يكن إلا عن سوءٍ في الطباع و نقصٍ في الإيمان و شدةٍ للشهوات في النفوس.

- فكيف كان تصرُّفك إزاء كلِّ ذلك؟

- لقد حدَّثتني نفسي أن أسير إلى الشام و أفقأ عين الفرقة قبل استفحالها؛ فإنه لو استمرَّ الأمراء في عبثهم و غيِّهم، و ضربهم أمر الوحدة و جهاد الافرنج عرض الحائط، و نسيانهم لما كان الـملك العادل نور الدين يسعى إليه و يقضي حياته من أجله.. لو استمرَّ ذلك منهم فسوف يفشلون و يتفرقون ثم تذهب ريحهم، و تقوى شوكة الافرنج ثم يعودون لغزوِ ديار الإسلام، و يضيع جهاد الملك العادل و حصائد أعماله أدراج الرياح، و تنفكُّ الديار المصرية عن الديار الشامية لكأنما لم نجاهد قطُّ لنصلها ببعضها و نوحِّدها تحت حكم الملك العادل.. فلما رأيتُ مسيري إلى الشام قد أضحى ضرورةً لا تحتمل التأخير جهَّزت معي سبعمائة رجلٍ

من عسكري متوقِّعا في خلدي أن يعترض الافرنج طريقنا إليها، و خلفت أخي الملك العادل على حكم مصر، و أرسلتُ مسبقًا أحد رسلي إلى دمشق ليُعلِمَ أصحابها و أهلها بأنِّي آتٍ إليها زائرًا مسالمًا، لا خصمًا محاربًا، و أني ما أريد إلا مصلحة الإسلام و المسلمين، و ما أقصد إلا الوحدة و تفادي الشقاق.. و أيَّد موقفي هذا و ثبَّته مكاتبات أهل دمشق و علمائها لي للقدوم إليهم.. فوصلتُ دمشقَ دون أن يعترضنا الافرنج و لله الحمد، و استقبلني ابن المقدم و أهلُها استقبالًا كريمًا، فلم ينتطح منهم عنزان، و لا اختلف عليَّ سفيهان.

- و ماذا عن الخليفة العباسي في بغداد.. هل عَلِمَ بأمر مسيرك إلى الشام؟

- أجل.. لقد أرسلتُ إلى دار الخلافة ببغداد كتابًا بيَّنتُ للخليفة فيه أسباب مسيري و دواعي قدومي إلى الشام.

- و هل وجدتَ عند وصولك دمشقَ معترضًا أو معاندًا لمجيئك؟

- نعم، و هم كُثُر.. و لكنهم لم يكونوا في دمشق، و إنما في حلب؛ ذاك أنَّ أمراءها -و على رأسهم كمشتكين- اضطربوا و خافوا من قدومي، و بعثوا إليَّ رسولًا من عندهم يُهدِّدني و يُغلظ لي القول، و لكنني قابلتُهُ بالصفح و اللين، و بيَّنتُ له ما أنا آتٍ من أجله و قاصدٌ لتحقيقه.

- و ماذا بعد؟

- لقد أصرَّ الأمراء الحلبيون على موقفهم منِّي، فكاتبوا -أولًا- الشيعة الباطنية الإسماعيليين ليقوموا بتصفيتي غيلةً، و لكن الله أنقذني منهم و أحبط مخطَّطهم بعدما حاولوا قتلي داخل خيمتي.. ثم كاتبوا-ثانيًا- أمير الافرنج الكافر في طرابلس يستقدمونه ليكون معهم فيقاتلونني جميعًا عند قدومي إليهم، فمنعتُ حصول ذلك بعد إذ بادرتُ بالمسير إلى طرابلس فانكفأ أميرها إليها ورجع عن مراده.

- عجبًا! أوَليس أمير طرابلس هذا هو الذي أسره الملك العادل نور الدين بعد أن نصره الله على الافرنج خلال وقعة حارم؟.. و إذا كان كذلك فكيف أصبح حرًّا طليقًا عائدًا إلى ملكه و إمارته؟

- نعم، ذلك الأمير هو نفسه الذي أسره الملك العادل نور الدين سنة تسعٍ و خمسين (559هـ) مع بعض الأمراء الافرنج الآخرين.. و أمير طرابلس -كما تعلم- من أخطر رؤوس الافرنج و أشدِّهم.. و لكن الأمراء الحلبيين لم يكونوا ليستطيعوا إطلاق سراحه إلا بعد موت الملك العادل، فأطلقوه في مقابل مبلغٍ من المال و ألفٍ من الأسرى المسلمين.

- تبًّا لهم!.. يا ليتهم اكتفوا بإطلاق سراح أمير الافرنج في طرابلس رغم عناده و خطورته على المسلمين، و لكنهم -فوق ذلك- كاتبوه و استعدَوْهُ على من كان أحرى بهم أن يقفوا في صفه لا في مواجهته!

- صدقتَ أخي و الله!

- و لكن مولاي السلطان.. من هم الشيعة الباطنية الإسماعيليون الذين ذكرتَ قبل قليل؟

- توقعتُ أنك ستسألني عنهم!.. هم طائفةٌ رافضية ضَالةٌ مُضلَّة ينسبون أنفسهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ذو النسب العلوي، و الذي وضع لبنة الأساس لفرقتهم هو يهوديٌّ زنديقٌ قبل بضعة قرونٍ من الآن، و قد كانت عقائد هذه الفرقة و أفكارها الفاسدة كفيلةً بأن يُخرجها علماء الإسلام من جميع فرق الدين و ينفون عنها انتسابها له.. ثم لم تزل أعداد رجال هذه الفرقة في التزايد حتى أضحت لها قلاعها و أراضيها، و راحت تُدبِّر المكائد و تدُسُّ رجالها وسط المسلمين ليقتلوا أهل العلم و الصلاح في الشام و العراق.. و اليوم ها أنت ذا قد سمعتَ منِّي طرفًا من أعمالهم القبيحة بعد محاولتهم قتلي غيلةً، و بالجملة: هي طائفةٌ

خطيرةٌ على الإسلام و أهله، و قد ظهر لي أنها أخطر علينا من الإفرنج أنفسهم! و لا حول و لا قوة إلا بالله.

- و يبدوا أنَّ لهم وجودٌ في حلب.. أليس هذا صحيح؟

- بلى! فقد حَدَث أن كانت طائفةٌ كبيرةٌ من أهل حلب تميلُ إلى جانبي، و تكره الأمراء بسبب ظلمهم و مواقفهم المشينة، و لكن طائفةً أخرى منهم كانت عكس ذلك، و هي الشيعة الباطنية.. فإنه لما جعل الملكُ الصالحُ -بتوجيهٍ من كمشتكين و حاشيته- يُناشدهم المعاونة بغية صدِّي عن سبيلي و ردِّي، عرضوا عليه شروطًا لإجابته، و منها أن يُرجع الأذان إلى صيغتهم الباطلة (حي على خير العمل) و يُذكر ذلك وسط الأسواق، و أن يمنحهم الجانب الشرقي من الجامع، و أن تُذكر أسماء الأئمة الاثني عشر بين يدي الجنائز، و أن تكون عقود أنكحتهم إلى كبيرهم و رئيسهم الضال أبي طاهر الحسيني، و غير ذلك من الشروط.. و كلها كما ترى شروطٌ لم ينزل الله بها من سلطان، و هي بعيدةٌ كل البعد عما جاء به مولانا و سيدنا النبي ﷺ.

- و هل أجابهم الملك الصالح لذلك؟

- نعم لقد فعل، و لا حول و لا قوة إلا بالله!

- رحم الله الملك العادل نور الدين!.. يا ترى ماذا لو شَهِدَ ما أقرَّه الملك الصالح للروافض؟!

- قدَّس الله روحه!..حتمًا كانت ستأخذ الشدة و الحزم منه مأخذًا حتى و لو كان ذلك على ابنه الملك الصالح، فإنه لطالما جاهد و عانى و صبر و اصطبر حتى طهَّر البلاد من رجس المبتدعين و أباطيل الزنادقة، و نشر قواعد الإسلام الصحيح بين الناس و بسطها.

- و ماذا جرى بعد نجاتك من القتل على أيدي الباطنية، ثم منعك لأمير طرابلس من المسير إلى حلب و معاونة أمرائها ضدك؟

- لقد أرسلتُ إلى أمراء حلب رسولًا هو أمير قلعة حماة عز الدين جورديك طلبًا للصلح و السِّلم؛ فلقد كنت راغبًا في السلم حقنًا لدماء المسلمين، و في الصلح نكايةً بأعداء الله الكفار الذين لم يكن هنالك شيءٌ يسرُّهم أكثر من أن يكاتبهم بعض الأمراء المسلمون و يستعدونهم على البعض الآخر.. و لكن أمراء حلب لم يترددوا في سجن عز الدين و ثقله بالحديد، متهمين إياه بمالأتي والوقوف في صفي.. فلما كان ذلك تنازل لي أخوه و نائبه في قلعة حماة عنها، فسرتُ إليها و استلمتها منه، ثم عدتُ إلى حلب لأتابع مهمتي.

- و ماذا عن ابن الملك العادل نور الدين.. الملك الصالح.. أليس له موقفٌ أو دورٌ يُذكر في كل هذه الأحداث، عدا إقراره لما اشترطه عليه الروافض الباطنية؟

- لقد كان الملك الصالح ساعتئذٍ صبيًّا غرًّا لا يفقه أكثرَ أمور الحكم و إدارة البلاد و شؤون العباد، و تُحيط به بطانةٌ سيئةٌ يُملي عليه أفرادُها ما تُمليه عليهم نفوسهم من الكره و البغض تجاهي، و رغم كرهه لسجن عز الدين جورديك و عدم تقبُّله لذلك، بيد أنه لا حول و لا قوة له، و لا إدراك ناضج و لا وقوف على حقيقة الأمر و صوابه.. فهو ملكٌ بالاسم فقط.

- و عندما عدتَ إلى حلب؟

- بعد عودتي إلى حلب عَلِمَ أمراؤها أنَّهم في مأزقٍ من أمرهم و ضيقٍ شديدين و أنا محاصرٌ لهم بعد أن تقدَّمتُ إلى بعض المدن و القلاع في طريقي إلى حلب و ضممت بعضها، فيمَّموا وجوهَهم هذه المرة ناحية أمير الموصل و ابن أخ الملك العادل نور الدين، سيف الدين غازي، و كَاتَبُوه للقدوم إليهم، فلم يتوانى سيف الدين في إجابتهم يقوده إليهم الغرور، و هو الذي لطالما اتَّهمني بسوء النِّية و المقصد من قدومي إلى الشام.. فلما وصلتُ أرسلتُ إليه طالبًا ما طلبْتُه قبل ذلك من أمراء حلب، بل و عرضتُ عليه فوق ذلك أن أسلِّمه دمشق و يكون نائبًا للملك الصالح، و ليس لي هدفٌ من ذلك إلا حفظ البلاد من الفرقة و تجنب وقوعها بأيدي الإفرنج الكفار.. فأبى سيف الدين السلمَ و الخيرَ، و آثر الحربَ و القتالَ، فلم

يكن هنالك بعدها بدٌّ من حربه، فانتهت المواجهة بيننا بأن ظفرتُ بالنصر عليه بعد صبرٍ طويل، و تفرَّق أعوانه بحلب، و رجع هو و أصحابه إلى بلاده الموصلية يجرُّ أذيال الهزيمة و الخسارة، و هذا بعد أن تصالحنا و توافقنا على بعض الأمور، و كان ذلك في رمضان من سنة سبعين (571هـ).. بيد أنَّ فتحنا الكامل و المكتمل لحلب جرى سنة تسعٍ و سبعين (579هـ).

- إذن.. فقد كنت في صراعٍ مع حلفٍ رباعيٍّ من الأمراء الحلبيين، سيف الدين غازي صاحب الموصل، الباطنية الشيعة، و الإفرنج الكفار!

- نعم.. للأسف كان الحال يومئذٍ كذلك، و لكنَّ الله مكَّن للحق و نصره، و ما نحن إلا جنده و عبيده المطيعون.

- فمـ..

انقطع حديثي بعد أن ورد إلى السلطان رسولٌ يقول أحد حراس الخيمة أنه جاء من عند ملك الإنكتار ريتشارد قبل الأسد.. فأشار مولاي السلطان للحارس أن يأذن للرسول بالدخول، ثم استأذن وزراءُ السلطان والعلماء وعلى رأسهم القاضي الفاضل في الدخول بعد رؤيتهم لرسول ملك الانكتار، فأذن لهم السلطان بذلك.. فلما اكتمل الجمع طلب السلطان من الرسول عرض ما عنده.. فكان ملخص ذلك أنَّ ملك الانكتار يبتغي عقد الصلح مع السلطان حيث أنَّ وضع الحرب لازال قائمًا بين الطرفين.. ثم استنتجتُ من كلام الرسول أنَّ من أسباب عرض الملك ريتشارد للصلح مرضه الشديد و عجزه عن قيادة جيوشه، و ورود الأخبار من إنكلترا عن تردي الأوضاع السياسية فيها، و كذلك انقطاع الإمدادات عنه تزاماً

مع فشله في إخراج المسلمين من بيت المقدس و يأسه من النجاح في ذلك، إضافةً إلى الخلافات بين أمراء الحرب في صفوف جيشه و معسكره..

و لكنَّ طلباً غريباً تقدَّم به الرسول على لسان ملكه ريتشارد للسلطان جعل كل الحاضرين في حالةٍ من التعجب و الاستغراب.. أفتدرون ما طلبَ الملك ريتشارد؟!

يقول رسوله بأنَّ الملك يطلبُ من السلطان بعضاً من الفاكهة و الثلج، و أنه اشتهى على وجه الخصوص الكمثري (الإجاص) و الخوخ..!!

لقد كان الملك ريتشارد يعلم أنَّ السلطان صلاح الدين ليس كباقي السلاطين و الملوك، و قصص كرمه و سخائه حتى مع أعدائه قد سارت بها الركبان، و تحدَّث بها العامة و الأعيان.. فلما سمع السلطان بذلك الطلب العجيب ابتسمَ و لم يتوانى في إجابته!!

أما عن موقف السلطان من طلب الملك ريتشارد للصلح فإنَّه قَبِلَه، و لعلَّ الأسباب التي جعلته يقبل بالصلح و لا يرفضه حسبما ظهر لي من كلامه مع الرسول من جهة، و مع الأمراء و العلماء من جهة ثانية، تنحصر في أسباب كثيرةٍ يأتي على رأسها: تذمُّر و ضجر الكثير من قادة الجيش والجنود من كثرة الحروب، و الخلاف الذي جرى بين العنصر التركي و العنصر الكردي داخل صفوف المعسكر.

و فور مغادرة رسول الملك ريتشارد كان وقت المغرب قد دنا، فأذَّن المؤذن و صلى بنا كالعادة القاضي الفاضلُ بصوته العذب الخاشع، فلما قضُيت الصلاة رافقتُ السلطان صلاح الدين إلى خيمته و دار بيننا حديثٌ قصيرٌ حول صلحه مع ملك الإنكتار، ثم سألتُهُ أن يُكمِلَ لي ما حدث بعد فتحه لحلب سنة (572هـ).. و لكنه نظر إليَّ نظرةً غريبةً و بدأت عيناه في الاغروراق و كأنِّي ذكَّرتُهُ بفراق صديقٍ عزيزٍ له أو شيء من هذا القبيل على وقع ذلك السؤال!

و بالفعل... فقد تذكَّر مولاي السلطان رجلًا فاضت روحه إلى بارئها خلال الفترة التي كان يحاصر فيها حلب لفتحها، و هو عالمٌ جليلٌ ذو شهرةٍ واسعةٍ و صيتٍ ذائعٍ، لم يَرَ أهلُ زمانه أحفظ منه و لا نظير له، و لكن من تراه يكون؟!.. سألت مولاي السلطان عنه.

فقال:

- نُبِّئنا في ذلك الوقت الذي كنا فيه مجاهدين و محاصرين لحلب سنة إحدى و سبعين (571هـ) أنَّ شيخنا الحافظ و إمامنا الواعظ أبي القاسم بن عساكر قد توفَّاه الله إليه، فآلمنا الخبرُ أكبر ألم، و انهمرت الأحزان على المسلمين في الشام كلها لفقده و رحيله قدَّس الله روحه..

- رحمة الله عليه.. لقد كنت أسمع عنه الكثير من الخصال الحسنة و الأخلاق الحميدة التي لا مناص للعلماء العاملين بعلمهم أن يتصفوا بها، و من رأى تصانيفه العديدة تيقَّن من علو كعبه في مختلف العلوم التي صنَّفها فيها، و لا ريب في أنَّ مولاي السلطان قد تصفَّح بعض «تاريخه» الكبير الذي صنَّفه بناءً على اهتمام الملك العادل نور الدين -طيَّب الله ثراه- به، فكان ثمانمائة جزءٍ في ثمانين مجلَّدة، فهي باقيةٌ بعده مخلَّدة، و لن يطَّلع على هذا السِّفْر العظيم أحدٌ إلا و سيعرف منزلة الشيخ السامقة في الحفظ و الاطلاع.

- صدقتَ لا فضَّ الله فاك!.. و لقد حضرتُ جنازَتَه فكانت من أهْيَب و أكْبَر ما شاهتُ من الجنائز قاطبةً؛ فإنَّ عدد من شيَّعوه و ساروا في جنازته لا يُقَدَّر و لا يُحصى، و هذا هو حال جنائز أولياء الله و خاصته و أهله ممن رفع ذكرهم في الدنيا رفعًا عظيمًا، و حبَّبهم إلى الخلق و العامة تحبيبًا كريمًا.. فعلى إمامنا أبي القاسم من الله الرحمة و الرضوان، و أذاقه في مقرِّ رحمته نتيجة العمل و الإيمان..

ثم أردف مولاي السلطان:

- و بعدُ أخي الكريم.. فإنَّ سنة اثنتين و سبعين (572هـ) انقضت على الصلح بيني و بين الحلبيين و المواصلة، و فيها توفي بعض العلماء الكبار ممن تكون قد سمعت عنهم و لو النزر

اليسير كشيخنا القاضي أبي الفضل كمال الدين بن الشهرزوري، و شيخنا شمس الدين بن أبي الضياء، رحمهم الله جميعًا بواسع رحمته.

- أجل مولاي السلطان لقد سبق و أن سمعتُ بعض أخبارهم؛ فالقاضي أبي الفضل بن الشهرزوري هو الذي لطالما بالغ الملك العادل نور الدين في تبجيله و الركون إليه حتى جعله أحد قضاته و وزرائه المقرَّبين.. و أما الشيخ شمس الدين بن أبي الضياء فهو كما تعلم مولاي السلطان أوَّل من خطب في ديار مصر للخليفة العباسي بعد أن طهَّرتموها من رجس الروافض العُبيديين.

- نعم هما كذلك.. و في تلك السنة أيضًا كان رجوعي من الشام إلى الديار المصرية حيث جعلتُ أضفي عليها بعض الإصلاحات و الإنشاءات و التعميرات، و لا أنسى ما كان من أمر جهاد الافرنج الكفار و إرهابهم حينئذٍ.. فانقضت السنة على هذه الأحداث.

- و ماذا بعدها؟

- بعدها كانت لي على الافرنج في ساحل الشام غزوات و هجومات، و جرت بيننا كرَّات و فرَّات، و منها تلك التي انهزمنا فيها و تقهقرنا في أرض الرملة بشق الأنفس يوم الجمعة من غرَّة جمادى الآخرة، و هي الهزيمة التي أحسبُها درسًا مفيدًا لي و لأمرائي رغم مرارتها.

- و كيف حدث ذلك؟

- بعد رجوعي إلى مصر عقدتُ العزم على أن أقوم بحملةٍ قويةٍ ضد الافرنج في خضم المواجهات التي كانت قائمةً بيننا يومئذٍ، فجمعت ما لايقل عن عشرين ألفًا من الأمراء و المجاهدي قاصدًا عسقلانَ الواقعة في جنوب أرض فلسطين، و أعددتُ لنا أفضل الأسلحة و العدة و العتاد، فأفلحنا في نزول عسقلان و قهر أعدائنا فيها بدون عناءٍ كبيرٍ، و أسرنا بعضًا منهم فضربنا أعناقهم قطعاً لدابِرِ عودتهم إلى قتالنا مرةً أخرى.. و لكن حدث بعدها ما كان سببًا رئيسًا في هزيمتنا؛ و هو انشغال المجاهدين بجمع الغنائم في قرى عسقلان و مناطقها

بعد كل إغارة و هجوم، حيث أنني تقدمتُ و فريقًا من الأمراء و الفرسان إلى الرملة تاركين وراءنا العدد الأكبر من جنودنا يُغيرون و يغنمون، فاعترضنا نهرٌ لم نكد نفرغ من البحث عن طريقة اجتيازه إلا و الافرنج قد دنوا منَّا، فهجموا علينا فورًا و نحن لم نكمل تعبئة صفوفنا و ترتيبها بعدُ، فعلمنا حينها أن الافرنج لعنهم الله كانوا ينتظرون وصولنا إلى النهر ليُباغتونا بالهجوم!.. فحمى وطيس المعركة بيننا و اشتدَّ بنا الحالُ رغم ما أبلاه البعض منَّا البلاء حسن في القتال، مثل ابن أخي تقي الدين عمر و ابنه الشاب أحمد الذي استشهد يومها أول ما طرَّ شاربه و نبتَ، و لا ننسى مولانا الفقيه عيسى الهكاري الذي افتديناهُ من الأسر بعدها و جماعةً من المسلمين غيره، و هو الذي جمع العلم و الدين و الشجاعة معًا.

- و ماذا عنكَ مولاي السلطان؟

- بالنسبة لي فقد حدث أن تكاثف حولي الافرنج يريدون قتلي، و رأيتُ منهم فارسًا يحثُّ نحوي حصانه، و قد صوَّب إلى نحري سنانه، فكاد يُبلغني طِعانه، و معه آخران قد جعلا شأنهما شانه، فرأيتُ ثلاثةً من أصحابي خرج كلٌّ واحدٍ إلى كل واحدٍ منهم فبادروه و طعنوه، و قد تمكَّن من قربي فما مكَّنوهُ، و هم: إبراهيم بن قنابر، و فضل الفيضي، و سُوَيد بن غضم المصري، و كانوا فرسان العسكر و شجعان المعشر!

- الحمد الله كثيرًا مولاي السلطان أن أنجاك من القتل و سلَّمك.. فماذا بعد؟

- بعدها سارت قِلَّتُنا القليلة و سلكنا البرية إلى مصر مع ما لقيناه في الطريق من المشقة و التعب و الجوع و العطش، بل و قد هلك الكثير من دوابنا بسبب ذلك و انقرض، و لكن الحمد لله الذين أنجانا من الهلاك، سبحانه و تعالى له الفضل كلُّه.

- إنني أتأسف على ما جرى مولاي السلطان، و لكنني أُذكِّرُك و نفسي بيوم أحُدٍ حينما انشغل الصحابة الرُّماة بالغنائم تاركين ظهر جيش المسلمين مكشوفًا أمام المشركين، فأتوهم

من ذلك الظهر المكشوف و أوقعوا فيهم الهزيمة المشهورة، و هو الأمر المشابه لما حصل لجنودك يوم الرملة.. و كل ذلك جراء الافتتان و الانشغال بالغنائم!

- صدقت أخي الكريم.. أضف إلى ذلك ما تعلَّمناه من ضرورة اكتمال وحدة الصف الإسلامي من الشام حتى مصر ليتسنَّ لنا إصابة الافرنج في مقتل، و إضعاف قِواهم بما يجعلنا نُفلح في مواصلة تحرير أراضي المسلمين التي اغتصبوها دون توقف، و ذلك ما جعلني و أمرائي نُعِدُّ العُدَّة و نصبر على ذلك لما يناهز العشر سنين حتى نصرنا الله عليهم في يوم البطشة الكبرى المشهود، يوم حطين.

- و هل يأذنُ لي مولاي السلطان أن أُسمِعَهُ بعض ما حفظته من شعرٍ بعد كسرة الرملة؟

- قد أذنتُ لك!

- قال أحدُهُم مادحًا إيَّاك و مهوِّنًا أمر الهزيمة عليك:

قرَّبْت من عسقلانٍ كلُّ نائبةٍ ... باتت تقلُّ بوكَّاف من الأسَلِ
فاض النَّجيعُ عليها و هي مُمْحِلةٌ ... فأصبحت مرتعًا للخيل و الإبِلِ
قُل للفرنجية الخُذلى رُوَيدكم ... بالثأر أو تخرجَ الشِّعرى من الحَمَلِ
ترقَّبوها من الفَوَّار طالعةً ... خوارق الأرض تمحو رونق الأُصُلِ
كأنني بنواصِيْهِنَّ يقْدُمها ... كاسٍ من الجود عُريانٍ من البَخَلِ
حسْبُ العِدى صلاح الدين حسبهمُ ... أن يقرفوك بجرحٍ غير مندملِ
و هل يخافُ لسانَ النحل ملتمسٌ ... مرَّت على أصبعيه لذَّةُ العسلِ

- جزى الله خيرًا قائل هذه الأبيات.. و أحسَبُهُ عيسى بن سعدان الحلبي!

- بلى مولاي السلطان.. صحيح.. هو مَن قال هذه الأبيات، و لكنني لم أستحضر اسمه فقط، فعادةً ما أنسى أسماء الشُّعراء رغم حِفظي لبعض أشعارِهم الماتِعة.

- و بعد، فإنَّه بعد كسرة الرملة تلك أخذتُ في ترتيب أمور الجيش و تنظيمها، و رُحتُ أشنُّ على العدو الافرنجي الهجمات الخاطفة التي استنزفت شيئًا من قدرته و قوته، و في شهر شوال من نفس السنة (574هـ) مضيتُ بجيشي راجعًا إلى دمشق بعد أن بلغني خبر هجوم الافرنج على حارم، و من هنالك واصلت شنَّ الهجمات و الغارات عليهم و الرَّدِّ على مثلها التي شنُّوها على بعض قلاعنا و حصوننا، و على إثر ذلك انقضت السنة.

- لله درُّك مولاي السلطان! فما تكاد تنقضي سنةٌ إلا و قد رفعت راية الجهاد ضد الكفار!

- إنه-يا أخي- ما من ملكٍ مسلمٍ يترك الجهاد في سبيل الله و قتال أهل الكفر و الطغيان، إلا و سلَّط الله عليه الذل و الهوان، و نحن بجهادنا نبتغي رضوان الله ﷻ علينا و الأجر من عنده و هو القائل: ﴿وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مَمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران:157].. و الجهاد كما في حديث مولانا رسول الله ﷺ هو ثالث أحب الأعمال إلى الله تعالى بعد إقامة الصلاة في وقتها و برِّ الوالدين، و إنَّ نفسي توَّاقةٌ إلى الجهاد أكثر من أي أمرٍ سواه، و ميَّالةٌ إليه ميلًا عظيمًا، و جزى الله سيدنا القاضي بن شداد خيرًا على كتابه الذي جمع فيه لي أحاديث الجهاد و آدابه و كل شيء يتعلق به؛ فقد زاد هذا الكتاب من همِّتي و حبي لهذا الفرض العظيم في ديننا.

- صدقتَ مولاي السلطان! و تالله إنَّ ما عليه أكثر الملوك و الأمراء المسلمين الآن من الذل و الضعف و الهوان أمام الافرنج و الروم الكفار لسببُهُ تركهم الجهاد في سبيل الله، بل و تراهم يستعدون العدو الافرنجي في بعض الأحيان عليك كما قد حدَّثتني سابقًا، و حبَّذا لو يعلمون أنهم لن يُفلحوا في دحر أولئك الملاعين من أرض المسلمين إلا بالجهاد و القتال في سبيل الله!

سمعنا بعدها منادي الصلاة يؤذن لصلاة العشاء، فنهضتُ و مولاي السلطان و توجَّهنا إلى المسجد الأقصى كالعادة لإقامتها، فلما قُضِيت الصلاة رافَقَنَا إلى الخيمة القاضي الفاضل و ابن شداد و ثلةٌ من العلماء و الأمراء.. فدخل الجميع إلى الخيمة و كنت آخر من دخل.. ثم أخذ كل واحدٍ منَّا موقعه و جلس حول السلطان في انتظار أن يبادر بالكلام، و لكن سرعان ما فوجئت بأنَّ الحديث القصير الذي دار بيني و بين مولاي السلطان حول الجهاد قد فتح نهمه و حرَّك رغبته للغاية للاستمتاع أكثر بالحديث عنه بين يدي أولئك العلماء و الأمراء الكبار.. فكان موضوع سمرِنا الوحيد في هذه الليلة هو الجهاد! و لا شيء غير الجهاد!!.. و لكن رغم الوقت الطويل الذي استغرقه سَمَرُنَا بيدَ أنَّ حديثنا عن الجهاد و استماعنا الماتع لآياته في القرآن و أحاديثه النبوية جعلنا لا نشعر بمرور الوقت ألبتة، بل و ترى الجميع عند انتهاء المجلس يتمنى لو أنَّه طالَ و لم ينتهِ!!.. و هو ما جعلني أفهم بعضًا من السِّرَّ وراء شغفِ السلطان صلاح الدين بالجهاد و اهتمامه به و ميله له وحده دون سواه.. و قد كان مولاي السلطان خلال ساعات الجلسة أكثرنا إنصاتًا لآيات الله و أحاديث رسول الله ﷺ في الجهاد، و أشدَّنا خشوعًا و تأثرًا بعد سماع كل آيةٍ و كلِّ حديثٍ على لسان القاضي الفاضل و ابن شداد و غيرهما من العلماء الحاضرين، فترى دموعه من حين إلى آخر تنهمر على خدَّيه، فتنهمر تبعًا لانهمارها دُمُوعُنا جميعًا تأثرًا بمشهد بكاء السلطان الكبير و الملك العظيم الذي أذلَّ الصليبيين و أذاقم الويلات لسنوات، فصار اسمه لديهم مرادفًا لكلمة الرعب، و الخوف، و الرهبة، و هلمَّ جرًّ!!!

و هكذا انقضت الليلة على أحسن ما يكون عليه الحال..

و في الغد صلينا الفجر بالأقصى وراء القاضي الفاضل صاحب الصوت العذب الشجي.. فلما قُضيت الصلاة ارتأى السلطان أن يعقد اجتماعًا طارئًا مع كبار الأمراء للفصل في المفاوضات الطويلة و الشاقة بينه و بين الملك الصليبي الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد؛

فإنها إلى ذلك الحين دامت خمسة عشر شهرًا متَّصلًا ابتداءً من الأيام الأولى لنزول الملك ريتشارد أرض الشام، و هذا الأخير هو الذي كان البادر في طلب الصلح دومًا من السلطان صلاح الدين.. فانتهى الاجتماع بصدور العرض النهائي للصلح، أو الأحرى أن نُسمِّيه بالهدنة، و حمله إلى الملك الصليبي ريتشارد رُسُلُ السلطان صلاح الدين، و كان أهمُّ ما نَصَّ عليه عرض الهدنة ذلك:

- يتملَّك المسلمون عسقلان، بشرط أن يجري تخريبها.
- يتملَّك الصليبيون ما بين صور شمالًا إلى يافا جنوبًا بما فيها قيسارية و حيفا و أرسوف.
- يتقاسم الطرفان اللُّد و الرملة مناصفةً، و لا يكون للصليبيين حديثٌ في الجبليات.
- اشترط السلطان صلاح الدين دخول بلاد الإسماعيلية (الحشيشية) في الصلح، و اشترط الملك ريتشارد دخول صاحبَيْ أنطاكية و طرابلس في اتفاق الصلح.
- يُسمح للصليبيين بزيارة بيت المقدس.
- للمسلمين و الصليبيين الحقُّ في دخول كل طرفٍ بلاد الآخر دون أن يُمنع.
- عرض الهدنة صالح لمدة ثلاث سنوات و ثلاثة أشهر.

و مباشرةً بعد الموافقة على وثيقة الهدنة من جانب الملك ريتشارد دخلت بنوده حيز التنفيذ بندًا بندًا بدءً من يوم 22 شعبان سنة (588هـ)، غير أنَّ الأمر الذي لاحظتُهُ بشكلٍ خاص هو عدم ارتياح السلطان صلاح الدين لبنود الهدنة و كرهه لأكثرها مع أنَّه هو الذي أشرف عليها و رضي بها! و هنا أدركت أنَّ سبب ذلك هو حجمُ الضغوطات التي مورِست عليه من قِبَلِ الأمراء و كثيرٌ من الجند الذين سئموا من القتال و أخذ الحنين إلى ديارهم و أوطانهم من أنفسهم مأخذًا كبيرًا، زيادةً على ما غشيهم من التعب و الإرهاق و الضعف إلى حدٍّ ما، زيادةً

على الخلافات التي نشأت من حينٍ إلى آخر بين العنصر التركي و العنصر الكردي.. و إلا فإنَّ مولاي السلطان كان قادرًا على مواصلة قتال الصليبيين و استغلال تشتُّتِ شملهم، و اختلاف أمرائهم فيما بينهم، و هبوط معنوياتهم، و ضعف قابليتهم للقتال، و لكن لا يُكلِّف اللهُ نفسًا إلا وسعها!!

و بعد أيامٍ قليلة بَلَغَ مولايَ السلطان صلاح الدين خبرٌ مفاده رجوع الملك ريتشارد إلى بلاده، و هنا آثر السلطانُ العودَةَ إلى دمشق و هو الغائب عنها لأربع سنين، فشرع في تنظيم أمور الرحيل بعد أن اطمأنَّ لوضع القدس و حالها حيث أكمل تشييد أسوارها قصد تحصينها، أما أنا فقد حزمت حقائبي لمرافقة السلطان إلى دمشق، فخرجنا من القدس يوم الخميس خامس شوَّال من هذه السنة، أي سنة (588هـ)، و صرنا كلَّما مررنا بثغرٍ من الثغور نُثني أعِنَّة أفراسنا و ننزل بأمر السلطان ليتفقَّد بنفسه أحوال المرابطين و المجاهدين فيها، و يُنصت لمطالبهم و يقضي في شكاويهم، و يعمل على سدِّ ما بتلك الثغور من خلل، و يحلَّ ما فيها من مشكل، و إنني لا أخفي عليكم ما كان يشعر به كلُّ مجاهدٍ في كلِّ ثغرٍ عندما يرى أمامه الملكَ السلطان صلاح الدين بذاته و صفاته و هو يبتسم في وجهه تواضعًا! فقد كان لذلك المشهد أطيب الأثر و أجملُهُ على نفوس أولئك المجاهدين!.. و أخيرًا وصلنا دمشقَ يوم الأربعاء، السادس عشر من شوال و قد كان في استقبال السلطان الآلاف من أهلها، علماءً و طلبةً، نساءً و رجالًا، شيوخًا و صبيانًا، فلم أر في حياتي مشهدًا أجمل و لا أروع من ذلك.. ثم اجتمع السلطان ببعض أولاده الصغار و الكبار، و وفد عليه رُسُلُ الملوك من سائر الأمصار، ثم أقام بضعة أيامٍ و هو يعمل و يجتهد في أمور الدولة و الرعية، و يُجالس العلماء و الأعيان و يقضي بين العوام .. و قد حدث أن اشتقت إلى رؤيته بعد أن فارقتُه بضعة أيام منذ وصولنا إلى دمشق، فلا يكاد يمرُّ عليَّ منها يومٌ إلا و أشعر بأنَّه مرَّ عليَّ شهرٌ لا يوم!.. لقد تملَّك حبُّ السلطان قلبي يا سادة!.. فدخلتُ إلى داره السلطانية حيث بلغني أنَّهُ جالسٌ فيها معظم

الأوقات، فلما أبصرني قد قدِمتُ استقبلني استقبالًا كريمًا و أقعدني بجانبه حتى رأيتُني أشعر بالأخوة و المودة، و المحبة الغامرة لهذا السلطان العملاق، و بعدها بادرتُهُ بالقول:

- لا أخفي على مولاي السلطان اشتياقي للقائه بعد أن افترقنا منذ وصولنا إلى هنا، و قد خشيتُ أن لن نجتمع بعد ذلك أبدًا!

فابتسم مولاي السلطان حتى بدت نواذُجُه و انفرجت أساريرُهُ و استنار وجهُهُ كأجمل ما يكون، ثم قال:

- و أنا كذلك يا أخي.. و لكنني كنت بانتظارك لأني أعلمُ أنَّ نفسك توَّاقةٌ لتسمع مني ما كنت أحدِّثُكَ به آخر مرة، و لو أطلتَ المجيء لأرسلتُ في طلبك و إن كنتَ في باطن الأرض..

- ذلك من كرمِ مولاي السلطان و حُسن ظنِّه بي.

- فهل تودُّني أن أحدِّثك حديثنا الباقي؟

- بلى مولاي السلطان.. إني إليك مصغٍ.

- قد ذكرتُ لكَ أهمَّ ما جرى سنة أربعٍ و سبعين (574هـ).. و إنَّه في ربيعٍ الأول من السنة التالية كان موعدنا مع الافرنج على مرج العيون ببانياس، فالتقينا و تقاتلنا قتالًا عظيمًا، فما هو إلا أن نصرنا الله على أعداء دينه نصرًا عزيزًا، و قُتِلَ منهم خلق كثير لا يُحصون بعد إذ لم ينجُ منهم إلا الشريد، و أسَرْنا بفضل الله غالبَ ملوكهم و أمراء جيوشهم و مقدميهم، فمنهم من افتدى نفسه بعد ذلك بماله الجزيل، و منهم من مات أثناء الأسر بعد عجزه عن افتداء نفسه.. و بعدها بأيام سِرنا إلى حصن يعقوب عند مخاضة الأحزان، و هو الحصن الذي بناه الافرنج قبل ذلك بسنةٍ و حفروا لهم بئرًا فيه، و كان منه علينا ضررٌ عظيمٌ، فنصبنا عليه المجانيق من كل الجهات، و أطبقنا عليه حصارًا شديدًا، فلم نزل كذلك حتى نَصَرَنا الله تارةً أخرى، و

ظفرنا بالحصن و من فيه، فَفَتَّ خبرُ امتلاكنا للحصن في أعضاد بقية الإفرنج، و أحزنهم ذلك أشدَّ الحزن، فذلك بفضلٍ من الله وحده علينا، فله الحمد و الشُّكرُ كلُّهما.

- يا له من جهادٍ جاهدتموه مولاي السلطان!.. و هل واجهتم حملةً انتقاميةً من الافرنج الملاعين بعد ذلك؟

- كنا مستعدِّين لمثل ذلك الأمر، و لكن الذي حدث هو طلبُ ملكِهم في القدس للهدنة بعد أن وجد نفسه في موقفٍ صعبٍ منَّا و ظروفٍ مانعةٍ لمهاجمتنا، فتصادف طلبُهُ للهدنة ذاك مع اعتبارات خاصَّة بنا جعلتنا نقبل طلبه و لا نردُّه، و كان ذلك مطلع سنة ستٍّ و سبعين (576هـ) على ما أذكر.

- و كم مدة الهدنة؟

- تهادنَّا على سنتين.

- و ما الاعتبارات التي دفعتكُم لقبول الهدنة؟

- أوَّلها أن نتفرغ لأمر السلاجقة المسلمين في بلاد الروم و نصلح بين ملوكهم من بني أرتق، و هو ما وفَّقنا الله إليه أجمل توفيق، و قد كان من أثر ذلك تطويع أولئك الملوك لنا و اتِّقاء وقوفهم بيننا و بين الافرنج بالتزامهم الحياد.. و ثانيها أن نُرهِبَ الأرمن الكفَّار و نؤدِّبهم بسبب مَلِكِهِم الذي غَدَر بقومٍ من التركمان عقب أن استمالهم و أمَّنهم ليرعوا في مراعي بلاده، فلما بَلَغنا خبرُ ذلك دخلنا بلاده و أذللنا أعوانه حتى صالحنا على مالٍ يحمله إلينا، و أسرى و سبيٍ يُطلق سراحهم لنا، و آخرين يستنقذهم من أيدي الافرنج، و قد أخذتُ منهم رهينةً حتى يوفي بما صالحنا عليه.. و ثالثها أن نأخذ قسطًا من الإعداد المتأني و التعبئة الكاملة لعسكرنا؛ فإنه إلى ذلك الحين كنا نجاهد و نقاتل في أكثر من جبهة دون أن يتسنى لنا الوقت الكافي لنستريح و نعيد تنظيم صفوف المجاهدين.

- و هل حصل من الافرنج نقضٌ للهدنة؟

- اِعلم أخي أننا لا نهادن الكفَّار إلا و نحن نتوقع نبذًا و نقضًا منهم للهدنة، و نحن إزاء ذلك دائماً محتاطون، و في هدنتنا مع ملك الافرنج في القدس لم يحدث من جهته نقضٌ، و لكنه حدث من جانب الأمير الغادر الخبيث أرناط صاحب حصن الكرك الذي لم يُبالي بالهدنة فنقضها.

- و ما خبرُ أرناط هذا على وجه التفصيل؟.. فإني لم أسمع عنه إلا النزر اليسير من الأخبار.

- إنني لا أعلم أميرًا من الافرنج أغدر و أحقر و أخبث من أمير الكرك أرناط هذا.. بل إنه لا يكاد يُعرف عند قومه إلا بالفارس اللص الذي لا يحرص قيد أنملةٍ على الوفاء بالمواثيق أو التَّحلي بالمروءة و الإنسانية! و لطالما قطع الطريق على قوافل الحُجاج المسلمين و تجاراتهم التي تجتاز بجانب بلاده، و اعتدى على أصحابها قتلًا و أسرًا و نهبًا - قبَّحه الله.. و يكفيك أن تعلم بأنَّه كان من بين الأمراء و الفرسان الذين وقعوا في أسرِ الملك العادل نور الدين قدس الله روحه، فأمضى بضعة عشر سنةً في الأسر حتى أطلِق سراحه بعد وفاة الملك العادل.. و لأنه كان أخبثَ أمراء الإفرنج و أشدُّهم أذيةً لنا و بلاءً علينا فقد عاد إلى إجرامه المعهود و إفساده المشهور، حتى إذا ما جرت الهدنة بيننا و بين ملك الافرنج في القدس بادر إلى نقضها، و لو علمتَ ما كان عازمًا عليه من وراء نقضه ذاكَ لأدركتَ مبلغ الخبث في نفسه اللئيمة..

- و على ما كان عازمًا تُراه؟

- لقد كان في نيته أن يغزو بلاد سيدي رسول الله ﷺ و يملك نواحيها!

- يا لخبثه و لؤمه قبَّحه الله!.. تالله إنك -يا مولاي- أصبتَ كبدَ الحقيقة بوصفك إياه بأنه أخبث و أحقر أمراء الافرنج الكفار، فمن ذا الذي تُحدِّثُهُ نفسُه بغزو مدينة رسول الله ﷺ و يجرؤ على ذلك!!.

- أجل.. فعندئذٍ كان نائبي على دمشق و أخي عز الدين فرخشاه له بالمرصاد؛ حيث سار إلى بلاد الكرك و نَهبَها قصْد إشغال صاحبها بها عن غزو المدينة النبوية، فولَّى أرناط قبَّحه الله القهقرى و عاد مسرعًا لا يلوي على شيء، و عاد فرخشاه إلى دمشق بعد أن كفى الله المؤمنين شرَّ ذاك الكافر.

- و لكن أليسَ لملك الافرنج في القدس يدٌ في ذلك النقض؟.. و إلا فكيف لأرناط أن يُقدِمَ على نقض الهدنة دونما إذنٍ أو تأييد من الملك؛ بما أنَّ لهذا الأخير سلطانٌ على أرناط؟!

- لقد أرسلتُ إلى الملك في القدس كتابًا أُعاتبه فيه و ألومه بشدَّة على نقض أرناط للهدنة التي بيننا، و ألزمتُهُ بأن يُلزِمَ الخبيثَ أرناط بإطلاق سبيل مَن أسَرَهُم و يعوِّض للمسلمين ما نهبه.. و لكن الملك كان أعجز من أن يُلزِمَ أرناطَ بما سبق و اعتذر لي بذلك، و هذا ما لم أفهمه إلا بأنه نهايةٌ للهدنة و دنوٌّ لأجلها رغم أنَّ الملك لم تكن له يدٌ في نقضها، بل أرناط وحده من دبَّر الأمر و أقدم عليه.

- و لعلكم بعد ذلك عقدتم العزم على قتلِ المجرم الفاجر أرناط؟!

- بلى.. فقد بلغ السيل الزُّبى عندما بلغني خبرُ نيته غزوَ مدينة رسول الله ﷺ، بل و وصلتني ألفاظه النابية من لسانه الفاجر بحقِّه ﷺ، فعندئذٍ نذرتُ دَمَه و عاهدتُ الله إن ظفرتُ به أن أستبيح مهجَته جزاءً له على ما أجرم، لا أقول في حقي و حقِّ المسلمين فقط، بل على ما أجرم في حق سيدنا رسول الله ﷺ.. و قد حصل ذلك بعد النصر في حطين، فالحمد لله أولًا و آخرًا.

- حطين!.. يا لروعة ذِكْراه و أثره الجميل على قلبي!

- أراك قد انفرجت أساريرك بذكرِ يوم حطين و أنت الذي لم تشهدهُ، فما بالك لو شهدتَه ببدنِكَ و جوارحك؟!

- تالله مولاي السلطان! إنني أكون أحيانًا في ضيقٍ من أمري و شدة لا يُجليها بعد -ذِكر الله- إلا تذكُّرُ أخبار ذلك اليوم المشهود و بطولات المجاهدين فيه!.. و كم تمنيتُ أن أكون حاضرًا يومئذٍ فأجاهد الكفار في سبيل الله ثم أفوز بإحدى الحسنين؛ إما نصرٌ و فتحٌ للقدس، و إما شهادةٌ يعقبها الفوز برضا الله و نعيمه المقيم!.

- لا عليك أخي، فذلك قدر الله و مشيئته النافذة.. و لكن مذ أن التقينا أول مرةٍ لم أسألكَ قطُّ عنك و عن موطنك!.. فما خبرك يا تُرى؟!

هنا أحسستُ و كأنَّ شيئًا صَعقني فجعلني كالصنم لا أتكلم و لا أسمع و لا أرى؛ فلم أكن قادرًا على التلفظ بكلمةٍ واحدةٍ، و لا على الحركة يمينًا أو شمالًا.. و كلُّ ما في الأمر أني كنتُ محدِّقًا بوجه مولاي السلطان و بصري شاردٌ لانشغال خاطري بسؤاله المفاجئ!

يا له من سؤال!.. ذلك ما لم أحسب حسابه، و لم أعِدَّ له جوابه!

فمِنْ أي البلاد أنا؟ و ما الذي جاء بي إلى خيمة السلطان في القدس ثم بعد ذلك إلى قصره في دمشق؟!.. كنتُ قادرًا على قول أي شيءٍ قد يقتنع به مولاي السلطان سوى أن أقول له بأني من البلاد التي قسَّمَتْها حدودُ سايكس-بيكو و أضاعت الحكم بشريعة الإسلام و رضيت بحكم الديمقراطية و الرأسمالية و الشيوعية و كل ما هو بعيد عن الإسلام!!.. أو أني من البلاد التي ضيَّعت بيت المقدس حتى أخذها إخوان القردة و الخنازير، بل و أقبلت على موالاتهم و «التطبيع» معهم!.. أو أني من البلاد التي سَجَنَت علماءها و اضطهدت مصلحيها، و بسطت الظلم بين العباد و نشرت الفساد و الرذيلة!.. أو أني من البلاد التي استنزفَ الأعداءُ منها خيراتها و ثرواتها حتى أضحى الفقر سمةً بارزةً فيها، و البؤس علامةً عليها!

لم أكن أستطيع قول ذلك كلِّهِ لمولاي السلطان؛ فأنا على يقينٍ بأن مزاجه سينقلب فورًا من السرور و الانبساط إلى الغضب و الـ.. الغضب دون سواه! و ذلك ما لم أكن مستعدًا لرؤيتِهِ على وجه السلطان البتة.

رآني السلطان شاردًا و كأني لم أسمع سؤاله.. فوضع يده على كتفي و هزَّني هزَّةً خفيفةً و قال:

- يا أخي! هل سمعت سؤالي؟!

فأجبتُهُ باسِمًا و الارتباك ظاهرٌ عليَّ:

- آه! نعم مولاي السلطان.. أكيد، لقد سمعتُ سؤالك، و لكن انشغلت قليلًا بالتفكير.. في الواقع أنا من قومٍ يرتحلون كثيرًا بين مختلف الأمصار، فلا يكاد يُعرف لنا بلدٌ نُنسب إليه و نتصل به على الدوام، و لكنني أحببت مؤخرًا أن انفصل عن القافلة و أنزل بأرضكم المباركة، أرض الشام، و أنا الذي لطالما بلغتني أخباركم الطويلة التي سارت بها الركبان، فسمع بها الصغير قبل الكبير و القاصي قبل الداني، و هأنذا الآن في حضرتكم الكريمة و لله الحمد.

كنتُ أعلمُ أنَّ هذا الجواب غير مقنعٍ إلى الدرجة الكبيرة، و لكن هذا كلُّ ما في جعبتي، فتنفست بعدها الصعداء و انقشعت عني آثار الحيرة و الارتباك.. ثم استأنفتُ حديثي مع صلاح الدين:

- و الآن هل يأذن لي مولاي السلطان في سؤاله عن أمرٍ تردَّدت كثيرا في سؤالك عنه سابقا؟

- اسأل ما بدا لك أخي، فعلَّ جوابي عن ذلك السؤال يكون فيه زوال شبهة أو كشف لِبس أو ردٌّ لفِرية.

- أودُّ أن أسألك عن رجل متصوِّفٍ يُقال له أبو الفتوح بن الحسن، فقد بلغني أنَّك أمرتَ بقتله قبل سنتين أو أكثر من الآن، و السبب كما بلغني أنَّ بعض العلماء في حلب ارتابوا لسوء

اعتقاده و مذهبه في كلامه حتى حكموا عليه بالكفر، خصوصا و قد بلغهم أنَّ طائفة كثيرةً من العوام افتُتنوا به و استُميلوا إليه، فأمرتَ أنتَ بقتله تبعاً لما رآه أولئك العلماء، فهل أجد عندك بيانا وافيا عن خبر ذلك الرجل؟.. فجُلُّ ما أعرفه أنَّه كان رجلاً عالما عابدا له باعٌ في الأصول الفقهية و العلوم الحكمية، أما إظهاره الكفر في أقواله حتى افتُتِن الناس به فأنا حتى الساعة موقوفٌ بين تصديقه و إنكاره إلى حين أن أعلم منك مولاي السلطان حقيقة ما جرى.

- أتقصد بذلك الرجل شهابَ الدين السِّهرورِدي؟

- بلى، هو الذي أقصدُ.

- نعم، قد تذكَّرت خبرَه، و بيانُ ذلك أنَّ شهاب الدين السِّهروردي ذاك كان شابا ذكيا و عالما بارعا له من العمر بضع و ثلاثون سنة، درس الحكمة و أصول الفقه و المنطق و كثيراً من فنون الفلسفة بعد أن طوَّف بعدد من الأمصار في الجزيرة و العراق، و قد علمتُ أنه كان غريب الأطوار و الطِّباع؛ فهو مُحِبٌّ للمعازف متلوِّنٌ في الثياب، يرى الناسُ عليه آثار الدنس و الوسخ فلا يغسل له ثوبا و لا بدنا، و لا يقصُّ ظفرا و لا شعرا، و فوق كل ذلك كان مستهترا بأحكام الشرع الحنيف و أوامره و نواهيه رغم أنه كان معظِّما لشعائر الدِّين. أما أخطر ما أُخِذ عليه فهو إسرافُه على نفسه في الإعراض عن بركات الوحي و الشرع، و الولع مقابل ذلك بعلوم الأوائل و المنطق و الفلسفة، فتطرَّف في تصوُّفه و ناهز الحدود حتى ظهرت عليه بعدئذٍ في كلماته أمارات الكُفر و الإلحاد.. و تفصيل ذلك أنَّه لما دخل بلاد حلب استمال إليه عددا كبيرا من العوام و الشباب لانبهارهم بسِعة نصيبه من الفلسفة و المنطق و علوم الأوائل، و ذاع صيته في تلك البقعة حتى بلغ خبرُهُ ابني الملك الظاهر صاحبُ حلب، فافتُتِن به هو الآخر و أُعجِب بكلامه حتى مال إليه و قرَّبه من مجلسه بحيث لم يكن للظاهر علمٌ واسعٌ يُمكِّنه من اتقاء الافتتان بالسِّهروردي و الميل إلى اعتقاده و مذهبه، فلما أحسَّ الناس و العلماء من السِّهروردي الكفرَ بعثوا إليَّ يقولون: «أَدْرِكْ وَلَدَكَ وَ إِلَّا تَلِفَ!» و أفتوا لي بضرورة قتله، و

بسطوا لي دواعي ذلك و أسبابه باستفاضة، فلم أملك بعدها إلا أن أمرتُ ولدي الظاهر بالإقدام على تخليص الناس من فتنته، فحُبِس و مكث في حبسه حتى مات لا عفا الله عنه.

- و ماذا عن كتبه و مصنفاته؟

- قد أخبرني العلماءُ أنَّ عامة كُتُبه فلسفة و إلحاد و سوء اعتقاد، نسأل الله تعالى العفو و السلامة في الدين و الدنيا و الآخر.

- آمين.. و لله في خلقه شؤون، فليت شعري أيُّ مذهب ذهبه السِّهروردي و أيُّ مسلكٍ سلكه، رغم ما أنعم الله عليه من الذكاء المُتوقد و اللسان الفصيح، و لكن ذلك ما يفعله الضلال بأهله و لو كان لهم من الذكاء ما كان و بلغوا من الفصاحة ما بلغوا، و ما المعتزلة أيام الخليفة العباسي المعتصم بالله إلا مثالٌ عن ذلك.

- صحيحٌ ما قلتَ أخي.

- و على ذكر السِّهروردي، هلا حدَّثتني عن مذهب التصوِّف و المتصوفين؟ فالذي أظنُّه أنَّ التصوُّف قطعةٌ من الضلال بدليل ما آل إليه أمرُ السِّهروردي.

- إنَّ التصوُّف مأخوذ من الصفاء، و هو النقاء. و المقصود أنَّ مذهب التصوف على حقيقته هو طريقة في السلوك تقوم على الانصراف عن كلِّ ما يُكدِّر صفاء النفس و نقاءها، و تزكيتها بالفضائل و الأخلاق، و الزُّهد في الدنيا و الابتعاد عن مفاتنها، و معرفة الله تعالى حق المعرفة.. و قد ظهر هذا المذهب ابتداءً من القرن الثاني، و ذهبه قومٌ كثيرون من العلماء و الصالحين و الزُّهاد فاشتهروا بتصوُّفِهم.

- و لكنني رأيت بعضا ممن يزعم هذا التصوُّف قد وقع في بدع و ضلالات عظيمة، خاصة تلك التي تتعلق بالاعتقاد في الله تعالى! فما تعليقُك على ذلك؟

- بلى، لقد غلا قومٌ كثيرون في تصوُّفِهم حتى رأينا منهم مَن تكلَّم في صفات الله تعالى كلاما شنيعا هو أقرب للكفر و الزندقة منه إلى الإيمان الحقيقي و ما قرَّره الصحابة و التابعون

في القرون الثلاثة الفاضلة، كحال شهاب الدين السِّهروردي، و إنَّ الـمرء لا يحتاج لكثيرِ علمٍ حتى يعرف الحق و الصواب مما يقوله أو يفعله أولئك المتصوفة الغُلاة.. و لكن ذلك كلُّه لا يعني بحال أنَّ التصوُّف مذموم لمجرد ما نراه من شطحات المتصوِّفة و عقائدهم الفاسدة، و هذا الضلال البعيد لم يظهر إلا في القرنين الماضيَين؛ أي الرابع و الخامس، و في ما قبل ذلك كان مذهب التصوُّف صافيا من أهل الضلال كصفاء جوهره، و حسبُك بأمثال الجنَيْد البغدادي تصوفًا نقيًّا معتدلًا مُقيَّدا بكتاب الله تعالى و سُنَّة سيدنا رسول الله ﷺ.

- الآن قد فهمت معنى التصوُّف مولاي السلطان، جزاك الله خيرا و نفع بك.

- آمين، و إياك أخي.. و إني الآن بصدد عقد مجلسٍ قضائيٍّ عام حتى أقضي ما شاء الله أن أقضي بين الناس، فاليوم هو يوم الاثنين، و قد خصَّصتُه و يومَ الخميس لذلك المجلس.

- إن كان لابدَّ من ذلك فأرى أن أبقى معك مولاي السلطان و أحضُر الجلسة، فهل تسمحُ بذلك؟

- لا بأس، ليس هنالك مانع.

نادى السلطانُ صلاح الدين من الدار السلطانية أن افتحوا الأبواب للمتحاكمين من الناس، و راح العمال يُنظِّمون و يُعِدُّون للجلسة، و ما هي إلا بعض دقائق حتى توافد العلماء و الفقهاء أولا فدخلوا القصر و جلسوا حول السلطان صلاح الدين بعد إلقائهم التحية علينا، و قد أبصرتُ من بينهم القاضيَ أبي المحاسن ابن شدَّاد، فلم أشأ أن أفوِّت الفرصة قبل بداية المجلس، و رحتُ أسأله عن بعض المسائل التي تخصُّ الشأن القضائي بعد أن انتقلت في مقعدي من جوار السلطان إلى جواره، فقلتُ له بعد التحية:

- إني سائلُك مولاي القاضي أبا المحاسن عن القضاء و ما يجب أن يتوفر في القاضي المسلم من الأوصاف و الخِصال؟

فقال:

- اِعلم أخي الكريم أنَّ القضاء كشِرعة في الإسلام عظيمُ الشأن رفيعُ المكانة، أما كوظيفةٍ و منصبٍ فأمرٌ جللٌ خطيرٌ ينفرُ من توليه كلُّ مسلم يخاف الله تعالى و يخشى أن يقف بين يديه و في رصيد سيئاته حكمٌ جائرٌ ضد أحد من البشر، و قد قال رسول الله ﷺ: «القُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الجنَّةِ وَ اثْنَانِ فِي النَّارِ، فَأَمَّا الَّذِي فِي الجنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الحَقَّ فَحَكَمَ بِهِ، وَ رَجُلٌ عَرَفَ الحَقَّ فَجَارَ فِي الحكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَ رَجُلٌ قَضَى للنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ».. و إذ الأمرُ كذلك فليس هنالك بدٌّ من أن يكون القاضي في الإسلام متحلِّيا بجملة من الأوصاف و الأخلاق حتى يُقيم العدلَ بين الناس و لا يحيف عن الحق في حكمه على أحدٍ من الخصوم و لو كان كافرا، و أهمُّها أن يكون ذا علم و صلاح و تقوى فلا يقبلُ رشوةً و لا يُحابي أحدا، و أن يكون مستقلا و عزيزا فلا يخضع لأحدٍ و لا يذل، و أن يكون مخلصا في عمله لله تعالى فلا يُرائي.

- صدقتَ مولاي القاضي، و لا شكَّ أنَّ حال العدلَ في كلِّ أمة إنما هو منوطٌ بحال القُضاة فيها.

- نعم، فمنصبُ القضاء في الإسلام -كما أسلفتُ- من الخطورة بمكان، و لا يتولاه إلا من جمع بين العلم و الصلاح و التقوى و الإخلاص، و إلا لضاع العدل و الحق، و تسلَّط الظلمُ و الباطل، و ليس بعد ذلك إلا زوال الدول و انهيارها؛ سُنَّة الله الماضية في الكون.

- أي و الله ليس بعد ذلك إلا زوال الدول، و قد قال أحد العلماء: «إنَّ اللهَ يَحْفَظُ الدَّوْلَةَ العَادِلَةَ وَ لَوْ كَانَتْ كَافِرَةً، و يُضيعُ الدَّوْلَةَ الظَّالِمةَ وَ لَوْ كَانَتْ مُسْلِمَةً!».

- ذلك قولٌ صائبٌ، لله دُرُّ قائله.

- و كيف يبتدئ القاضي عملَهُ عند مثول المتخاصمين أو المتحاكمين بين يده؟

- أوَّل شيء يجب على القاضي فعلُهُ هو أن يُساوي بين الخصمين و يعدل بينهما في مجلسهما أمامه و سماعه منهما و قضائه فيما بينهما، فقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «إِذَا تَقَاضَى إِلَيْكَ رَجُلَانِ فَلَا تَقْضِ حَتَّى تَسْمَعَ لِلْآخَرِ؛ فَسَوْفَ تَدْرِي كَيْفَ تَقْضِي»، و قال عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري: «آسِ بَيْنَ النَّاسِ في مجلسِكَ و في وجهِكَ و قضائِكَ، حَتَّى لا يَطْمَعَ شَرِيفٌ في حَيْفِكَ، و لا يَيْئَسَ ضعيفٌ من عَدْلِكَ».

- و ماذا أيضا؟

- و يجب عليه تفادي رفع صوته صائحا في وجه خصمه، فقد ولَّى أمير المؤمنين علي أبا الأسود الدؤلي القضاءَ، ثم عزله، فقال: «لِمَ عَزَلْتَنِي وَ مَا خُنْتُ وَ لَا جَنَيْتُ؟!» فقال: «إِنَّما رَأَيتُكَ يَعْلُو كَلَامُكَ عَلَى الخصْمَيْنِ».. كما ينبغي له ألا يقضي حُكمَه و هو في حالة غضبٍ لئلا يكون الحُكمُ جائرا أو مائلاً عن الحق، لقوله ﷺ: «لَا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بَيْنِ اثْنَيْنِ وَ هُوَ غَضْبَانٌ».. و لن يستوفي ذلك كلَّه إلا و قد استقام حُكمُ و أصاب كبدَ الحقِّ إن شاء الله تعالى.

- يا لعظمة ديننا! تالله إنَّ الذي جاء به الإسلام في شأن القضاء و أصحابِهِ لشيء عجيبٌ لم تعرف البشرية نظيرا له قطُّ!.

- نعم، و إنا لنحمدُ الله على أن جعلنا مسلمين.

- و هل للقاضي يا تُرى أن يحكم بغير شرع الله تعالى؟

- لا، بل إنَّ ذلك لضربٌ من ضروب الكُفر و العياذ بالله، فقد قال تعالى: ﴿ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ﴾ [يوسف:40،67]، فشَرْعُ الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، و قد قال تعالى: ﴿وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:12]، و إلا فستختلُّ الأحكام و تضيع حقوق المسلمين و الناس بسبب ما قد يعتري نفسَ القاضي من الأهواء و الميولات حينما يبتعد عن الحكم بشريعة السماء.

- إذن، فما الذي يعنيه الاجتهاد إذا لم يكن جائزا للقاضي أن يحكم بغير شرع الله؟

- إنَّ معنى الاجتهاد يا أخي هو استفراغ الفقيه أو القاضي وِسعه لاستنباط الحكم الشرعي في مسألةٍ ما أو قضيةٍ ليس فيها نصٌّ ثابتٌ من القرآن و السُنَّة استنادًا إلى الأدلة الشرعية الموجودة فيهما، فهما مصدر التشريع عندنا دائما، مما يعني أنَّ الاجتهاد هو فسحةٌ لاستنباط الأحكام الشرعية دونما خروج عن دائرة مصدر التشريع في الإسلام.. أما القاضي أو الحاكم الذي يحكُمُ بما هو خارجٌ عن ذلك المصدر فكأنَّه يُنكر حقَّ الله في الحكم و التشريع، و هذا كُفرٌ واضحٌ يستوجب الخروج عن دائرة الملة إن كان ذلك عن إنكار و جحد، و قد قال تعالى: ﴿وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمْ الكَافِرونَ﴾ [المائدة:44]، نسأل الله العفو و العافية في الدنيا و الآخرة.

- و ماذا لو اعترضت القاضيَ معضلةٌ تعذَّر عليه بسببها أن يقضي بالحق في قضية ما؟

- ساعتئذٍ ليس له إلا أن يستشير ذوي العلم و الرأي لئلا يفلت من حق، نزولا تحت الأمر الإلهي القائل: ﴿وَ شَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ﴾ [آل عمران:159]، و قد كان أمير المؤمنين عثمان بن عفان إذا جاءه الخصمان قال لهذا: ادْعُ عَلِياًّ، و قال لهذا: ادْعُ طَلْحَةَ وَ الزُّبَيْرَ، و نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا جاؤوا إليه قال للخصمان: تَكَلَّمَا. فإذا تكلَّما يُقبل عليهم فيقول: مَاذَا تَقُولُونَ؟ فإن قالوا ما يُوافق قوله قضى عليهما و لا ينظرهم بعد.

- لله دُرُّ صحابة رسول الله ﷺ كم جسَّدوا الإسلام في أقوالهم و فِعالِهم أكمل تجسيد و التزموه أجمل التزام!

- صدقت، رضي الله عنهم أجمعين.

- و لكن نحن نُدرك أنَّ الإنسان بطبيعته ليس معصوما، و من ثَم فلو كان قاضيا فإنَّه قد يُخطئ في حكمه، و ربما ستقع مفسدةٌ على المتحاكمين أو الخصوم.. فما موقف الإسلام من هذا؟

- إذا كان القاضي من أهل العلم بما يُجيز له الاجتهاد للوصول إلى معرفة الحق، ثم أخطأ في اجتهاده و لم يُصب الحقَّ، فإنَّ الإسلام قد بشَّره بحصول الأجر له على لسان النبي ﷺ لما قال: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَ إِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ».

- و ما شرحُ ذلك؟

- شرحُهُ يسيرٌ إن شاء الله؛ و هو أنَّ الأجران اللذان يحوزُهما القاضي بإصابته الحق بعد اجتهاده هما: أجرُ الاجتهاد في معرفة الحق، و أجرُ معرفة الحقِّ ذاته.. أما الأجر الذي يحوزُهُ بخَطئه بعد اجتهادِه فهو: أجرُ اجتهاده في معرفة الحقِّ، و ليس عليه ذنبٌ إن شاء الله بعد ذلك الخطأ ما دام ناوياً معرفة الحقِّ قاصداً إصابتَه في حُكمِه، و هذا من عظمة دين الله تعالى!.

- و ماذا تُفيدني بشأن أرزاق القُضاة مولاي القاضي أبا المحاسن؟

- إنَّ حِرْص الأمم على أن يكون القضاء فيها نقيا من الجور و الظلم يقتضي تخصيص أجورٍ عالية و كافية للقُضاة، و ذلك كيلا تضعُف نفسُ أحدهم أمام رشوة راشٍ أو هدية مُهدٍ فيجور و يظلم و يقضي بالباطل عوض أن يقضي بالحق، و قد كان الخلفاء الراشدون يحرصون على ضمان أرزاق العُمال مِن الناس، و في مقدمتهم القُضاة.

- و ماذا لو أخذَ القاضي مالاً غيرَ الذي يتقاضاه على عمله في القضاء؟

- ذلك المال الذي يأخذه زيادةً على حقِّه إنما هو باطلٌ لا يجوز له أخذه، و إن أخذَه فقد خان الأمانة في عمله، و قد قال سيدنا رسول الله ﷺ: «مَنْ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقاً، فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ».

- أرى الآن أنَّ الخصوم و المتحاكمين قد توافدوا على المجلس.. و إنِّي شاكِرٌ لك مولاي القاضي أبي المحاسن رحابةَ صدرِكَ، و أسأل الله أن يَجزيَكَ خير الجزاء على ما علَّمتني إيَّاه آنفا.

- بارك الله فيك بُنيَّ و نفع بك.

ثم اجتمع نفرٌ من النَّاس أمام باب القصر و لكلٍّ منهم مظلمة أو معضلة يُريد من السلطان إنصافا له فيها أو حلاً أو حُكماً، فنهضتُ من مكاني فور انقضاء حديثي مع القاضي ابن شداد و رجعتُ إلى حيثُ كنتُ جالسا بجانب مولاي السلطان صلاح الدين، و رحتُ أشاهدُ مُجريات هذا الحدث القضائي الذي لم أكن أتخيَّل بتاتا أنِّي سأحظى بفرصة مشاهدته مباشرةً أمام ناظِريَّ!.. و لقد استمرَّ المجلس ساعات طِوال قضى فيها السلطانُ بالحق للعشرات من الناس، كبارا و صغارا، شيوخا و عجائزا، على أنَّني هاهنا على موعدٍ لكي أروي لكم مشهداً واحداً فقط من كثير المشاهد الرائعة التي شَدَهتني و أدْهَشتني في ذلك المجلس القضائي، فازداد إعجابي بالسلطان و إكباري به على إثرها أكثر من ذي قبل حتى تيقَّنتُ بما لا يدع للشَّكِّ مجالا أنَّ هذا الرجل نادرا جداً ما يجود بمثله الزمانُ، قدَّس اللهُ روحَه.. و حكاية ذلك المشهد الرائع أنَّ تاجراً يقال له عمر الخلَّاطي جاء إلى المجلس و ادَّعى على السلطان صلاح الدين صراحةً أنَّه أخذ منه أحد مماليكِه و يُدعى سُنقر، و استولى على ما كان لهذا المملوك من ثروة طائلة بدون وجه حق، و تقدَّم المدَّعي إلى القاضي ابن شدَّاد ليكون هو القاضي بينه و بين السلطان صلاح الدين، و هنا أظهر هذا الأخير حِلما عظيما و خضوعا عجيبا لسلطة القضاء و هو من هو مكانةً بين الناس و رئاسةً و سؤدداً و هيبةً! فرضي السلطان أن يقف موقف الخصم من صاحب الدعوى رغم علمه بأنَّ هذه الدعوى باطلة في حقِّه، فإنَّه رأى من الواجب أن يُساهم بذلك في سير المؤسسة القضائية في دولته سيراً حَسَناً يُعزِّز من نزاهتها و استقلالها، و بعدما أحضر كلُّ واحدٍ مِن الطَّرفين شهودَهُ و أبرز أدلَّة إثبات رأيه، ظهر للقاضي ابنِ شدادٍ أنَّ الحق مع السلطان صلاح الدين فقضى لصالحه، و لكن الذي فاجأ به السلطانُ الحضورَ بعد ذلك هو أنَّه لم يَدَع الخلاطي ذاك يخرج خائبا من القصر بعد اتِّضاح بُطلان ادِّعائه، و إنَّما أمر له بخلعةٍ و مبلغ جزيلٍ من المال!.. فبالله عليكم؛ مَن مِن الملوك -سوى ملوك الإسلام- وقف

هذا الموقف الشامخ العظيم، و خضع لسلطة القضاء متجرِّدا من كلِّ مُلكٍ و سُلطةٍ، ليُجسِّد بنفسه فعلا -لا قولا- مبدأَ فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية؟!

المهم أنه بعد انقضاء المجلس تفرَّق الجمعُ و ذهب كلُّ واحد إلى وجهته، و كان ذلك دقائق فقط قبل دخول وقت صلاة المغرب، ثم نهض مولاي السلطان صلاح الدين و نهضتُ معه للذهاب إلى المسجد..

و لكن يبدو أنِّي لم أخبِركُم بعدُ عن هوية هذا المسجد الدمشقي!

لقد اتجهنا -و يا لحظي و سعدي- إلى المسجد المعروف بـ(الجامع الأموي)، و ما أدراك ما الجامع الأموي!.. ذلكم الجامع الذي لم يكن له مثيلٌ يوم اكتمل بناؤه في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي رحمه الله. ذلكم الجامع الذي كان أعجوبة فريدة في بنائه و تصميمه، و قد أنفق على بنائه الوليدُ ما لا يقل عن خمسة آلاف ألف دينار و ستمائة ألف، أي خمسة ملايين و ستمائة ألف دينار، و استعمل لذلك خلقا كثيرا من المهندسين المُتقِنين و البنَّائين المهرَة.. على أنَّ هذه المعلومات التي أحفظُها من زمن بعيد عن الجامع الأموي لم تكُن لتُغنيني عن فرصة مشاهدته مشاهدةَ العينِ بعد قدومي إلى دمشق في أيام السلطان الكبير صلاح الدين..

فبعد أدائنا صلاة المغرب قمتُ أنا وحدي و ولَّيتُ مُدبراً إلى آخر المسجد و جلستُ في إحدى زواياه كي تكون زاوية نظري واسعة فأتأمَّل تصميمَهُ و بناءَهُ من الدَّاخل، و لكن قد رأَيْتُني منبهرا لفرط جمال زخرفة ذلك الجامع العريق و إتقان تصميمه، و لم تكن معلوماتي عنه سابقا -على غزارتها- سوى جزءٍ صغيرٍ لا يُغني بتاتا عن المشهد الحقيقي.. فيا لِعظمة حضارة الإسلام و روعتها، و يا لِتلادة تاريخٍ كنا فيه صُنَّاع الإبداع و الإتقان في كل الميادين الحضارية، فبلغنا شأواً عالياً و شأناً سامياً.. و إذا كنتم تسألون عن حال أوروبا يوم كانت الحضارة الإسلامية في أوج عطائها فأنا أجيبكم بأنها كانت تعيش ظلاما دامسا و انحطاطا

رهيبا، و لم يعرف الجهلُ و الانحطاطُ أنسَبَ بيئة لهما و لا أخصَبَهَا كما عرفاها عند الأوروبيون.. و لكن الدهر دولاب، و الأيام دول، و دوام الحال من المحال!!

و بعدما أخذتُ قسطا من الاستمتاع بما يحوزه الجامع الأموي مِن روعة البناء و دقة التصميم، أبصرتُ السلطان صلاح الدين خارجا من الجامع و هو يُشير إليَّ بأن ألحقَه، فنهضتُ و لحقتُ به خارج الجامع، و بينما نحن نمشي متوجِّهَين سألتُه قائلا:

- قد تذكَّرتُ آنفاً خبراً سمعتُهُ منذ سنوات عن كتابٍ ما سألتَ أحد الشيوخ العلماء أن يُصنِّفه لك، و لكنني لم أدرِ مَن ذلك الشيخ و ما ذلك الكتاب.. فما الخبر يا ترى؟

فأجابني:

- فأما ذلك الشيخ فهو مولانا الفقيه أبي المعالي قطب الدين الدين النيسابوري، و هو عالِمٌ نحريرٌ متفنِّنٌ، له قبولٌ واسع بين الناس، وقد تناهى إلى سمعي أنه وعظ مرَّةً الملكَ العادل نور الدين محمود و ناداه باسمه في المجلس كما كان يفعل البُرهان البلخي شيخ الحنفية المشهور قبلَه، فسأله نور الدين ألا يُنادي باسمه، فلما سئل عن ذلك فيما بعدُ قال: «إنَّ البَلْخِيَّ كَانَ إذَا قَالَ "يَا مَحْمُود" قَامِتْ كُلُّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِي هَيْبَةً لهُ، و يَرقُّ قلْبِي، و القطْبُ إذَا قالَ لي (يَا مَحْمُود) يَقْسُو قَلبي و يضيقُ صَدْرِي!».. و أما ذلك الكتاب فهو كتابٌ جمع لي فيه القطبُ كلَّ ما أحتاج إليه لسلامة العقيدة مِن كدر التشبيه و التعطيل، بناءً على أدلة الكتاب و السُّنَّة، بعيدا عن كلِّ ما يُصادمها و يُخالفها، فحصل لي بفضل الله تعالى سلامة عقيدتي، بل و لشدة حرصي عليها ارتأيت أن أعلِّمها للصِّغار من أولادي يومئذ حتى ترسخ في أذهانهم، فكانوا يحفظونها و يُلقونها من حفظهم بين يدي.

- جزى الله خيرا مولانا أبي المعالي، و جمعُهُ لذلك الكتاب لا شكَّ في صوابه؛ فإنَّ صلاح العقيدة موجِبٌ لصلاح الدين كلِّه إذ هي أساسُهُ و قاعدتُه، و كلُّ مَن نشأ على فساد العقيدة

فإنَّ دينَه -بالضرورة- سيكون فاسدا و لو تعبَّد ألف سنة، إلا من هداه الله إلى ما يُصلح عقيدته و تاب و أناب، و تبرَّأ مما كان عليه من الضلال.

- كلامٌ جميلٌ لا فُضَّ فوك.

- على أنَّني الآن -مولاي السلطان- متشوِّقٌ على أحرِّ من الجمر لمعرفة تفاصيل خبر حِطين و فتح بيت المقدس، فذلك أكبر ما يشغل حديثَ الناس اليوم و يُتداول على ألسنتهم شرقا و غربا.

- لا تحسبنَّ أخي أنَّ انتصارنا في حطين ثم فتحنا للقدس الشريف جاء بأدنى جهادٍ و أقل إعداد و أضعف إيمان.. كلا!.. و لكن قد اجتمعت لنا كافة الأسباب التي نَزَلَ بها نصرُ الله علينا و تمكينه لنا في الأرض بعزِّه و فضله.

- و ما تلكم الأسباب؟

- أولها: الجهاد الدائم في سبيل الله؛ فالله يشهد أننا لم نتركه إلا في فتراتٍ يسيرةٍ منذ أن استتبَّ لنا أمر المُلكِ و الحكم؛ فكنا نُجاهدُ الافرنجَ و نقمع الخونةَ و الموالين لهم منذ عهد الملك العادل نور الدين رحمه الله، فلما عَهد لي بالوزارة في الديار المصرية لم أتوانى قطُّ في مواصلة شن الغارات و غزو الافرنج كما سبق و أن حدَّثتك، هو من الشام و أنا من مصر، و قد بقي عهدُنا بالجهاد قائمًا و سيظل كذلك حتى يتوفانا الله تعالى و يأخذنا إليه.. و ثانيها: صِدقُ الإيمان؛ فإنه كان زادنا الأول و الأكبر أينما حللنا و ارتحلنا، و اعلم أنه كلَّما استوَت صفوف مجاهدينا أمام صفوف أعدائنا تيقنَّا من أننا منتصرون لا محالة؛ و ذلك لفرط إيماننا بالله و ثقتنا الكاملة في نصره بعد الأخذ بأسباب النصر المادية (الدنيوية) و إعداد ما يُستطاع من الخيل و الدواب و السلاح، فإذا اجتمع ذلك كله بقوة الإيمان و اليقين تحقَّق النصر و لا ريب!.. و ثالثها: إقامة العدل بين الناس و رفع الظلم عنهم؛ فإنَّ العدل أساس المُلك و مُثبِّتُه؛ فبقاءُ المُلك ملازمٌ لبقاء العدل، و قد كان المجاهد عماد الدين أتابك زنكي والد نور الدين -

قدَّس الله روحيهما- عادلًا في الرعية آمرًا بالقسط بين الناس، فلما مات أقام المِلكُ العادل نور الدين دولتَه على العدل و القسط أيضًا، و ما سُمِّي بالملك العادل إلا لعدله المشهور، فلما مات كان لزامًا علينا أن نواصل المسير على قاعدة العدل حتى يتحقق لنا مرادُنا بدحر الافرنج الملاعين و إخراجهم من بلاد المسلمين قدر المستطاع... و رابعها: إعداد العدة و الأخذ بالأسباب المادية الدنيوية نزولًا تحت أمر الله تعالى بذلك عندما قال: ﴿وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:60].. و إنَّ أولى الغايات التي يُحقِّقها إعداد السلاح و القوة هي إرهاب الأعداء في نفوسهم و كسر عزيمتهم، قبل لقائهم و إعمال السيف فيهم؛ و قد كان ذلك على البَرِّ و البحر سواء.

- البحر؟!..يا للعجب!..أوَكُنتم تُعِدُّون للجهاد على البحر زيادةً على البَر؟!..يؤسفني أنه لم يبلغني من ذلك شيءٌ قطُّ!

- حسنًا، سأخبرك بنفسي.. لقد جاهد الملكُ العادل نور الدين - و من قبله عماد الدين زنكي- الافرنجَ طويلًا على البَر، و خاض ضدهم أكبر المعارك و أشرس الحروب، بيد أنَّه لم يكن باستطاعته التفكير في قتالهم على البحر، فضلًا عن أن يقيم السفنَ و المراكب لذلك، فكان البَرُّ هو الميدانَ الوحيد الذي جاهدَ الافرنجَ عليه حتى استنقذَ منهم الكثير من الحصون و القلاع و المدن جزاه اللهُ و جزى أبيه عنا خير الجزاء.. و لكن لمَّا أقمنا دولة الإسلام الصحيح في مصر بعد القضاء على حكم الروافض العُبيديين أوقعَ اللهُ في نفسي الإرادة لإقامة أسطولٍ بحريٍّ قوي يصدُّ مراكب الأعداء و يدحرها؛ و سبب ذلك أنِّي رأيت أولئك الملاعين ضعفاءَ في البَرِّ أقوياء على البحر، و كانت مصر تؤتى من البحر و تُغزا أكثر من البَر، و قد حكيتُ له طرفًا من ذلك سابقًا، زِد على ذلك أنَّ جحافلهم كانت تتتابع نزولًا بالشام عبر البحر كلَّما رأى ملوكهم أنَّهم بحاجةٍ فيها إلى المَدد بعد المَدد، و العُدد بعد العَدد.. و لكلِّ ما سبقَ فإنَّ أسطولنا

لم يزل يُقام و يُبنى على السواحل المصرية حتى أضحى جاهزًا ليشنَّ الهجمات و يصدَّ عدوان الافرنج كأقوى ما يكون الصد.

- هل أفهمُ من حديثِكَ هذا أنَّ ملوك العُبَيْدِيين في مصر -قبل سيركم إليها و فتحها- لم يكن لهم أسطولٌ بحريٌّ يُدافعون به عن سواحل البلاد؟!.

- بلى، لقد كان لهم أسطولٌ قويٌّ طيلة سنوات حكمهم، و لكننا لما أزال اللهُ بنَا مُلكَهم كان أسطولهم ذلك قد بلغ من الضعف و التآكل مبلغًا كبيرًا قارب الانهيار، فلم يكن هنالك بدٌّ من إقامته من جديد على قواعد القوة و المتانة و الإتقان.

- و كيف كانت إقامتكم لهذا الأسطول؟

- كانت أولى خطواتنا اللازمة للشروع في إقامته ضمانُ وفرة الأشجار التي منها نقتطع خشب المراكب و الشواني، فجعلنا أكثر غابات البلاد مِلكًا للدولة بعد أن استفتينا في ذلك فُقهَاء الإسلام فأفتَونا به، فلم يكن بعدها لأحدٍّ الحقُّ في إتلاف غصنٍ واحدٍ أو قطع شجرةٍ واحدةٍ بحجة امتلاكها أو الاختصاص بمنفعتها ما دُمنا نوفِرُ خشبها لصناعة المراكب و الشواني و السفن.. ثم أنشأتُ ديوانًا مستقلًا يعنى بشؤون أسطولنا الصغيرة قبل الكبيرة، و خصَّصتُ لتمويله مبلغًا كافيًا من المال الوارد من خراج الأراضي و الزكاة و الغنائم و غير ذلك.. و بعدها سعيتُ جاهدًا لحثِّ الناس على العمل في الأسطول و شحنه بهم، و قد أضحى الجهاد على البحر منذ ذلك اليوم عملاً عظيم القدر في نفوس الناس إذ أن القلة القليلة فقط من كان لها الباع الطويل في ركوبه، أما الأكثرية فلا تعرف عليه تجربة و لا خبرة، و لكن الحمد لله الذي أحيا قلوب الناس بحب الجهاد و لو كان على البحر فتتابع الشباب و الكهول إلى ركوبه أفواجاً يبتغون إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة.

- و هل كان الأسطول متشكلًا فقط من الأتراك و الأكراد؟

- كلا، لقد تألف أسطولنا كذلك من بعض النوبيين و البربر، زيادةً على المصريين، و لا ننسى الحضور الفَّعال للمغاربة الذين كان لهم يدٌ كبيرةٌ في الغزو على البحر أيام العُبيديين، و لو سألتني عن مادة أسطولنا و أساسه بعدُ فسأقول أنه أهل المغرب دون سواهم!

- و لما المغاربة بالتحديد؟!

- ذاك أنهم كانوا من أعلم الناس بالبحر و شؤونه، و أكثرهم غزوًا و جهادًا عليه، و قد حَنق الافرنج الملاعين على كل من هو مغربي بعد إذ ذاقوا من المجاهدين المغاربة على البحر صنوف التنكيل أيام الملك العادل نور الدين - قدَّس الله روحه حتى صارت شجاعتهم مضرب الأمثال عند الناس، ففرض الافرنج على التجار المغاربة دون سواهم دينارًا إضافيًا! فلله درُّهم من مجاهدين أغاض الله بهم أعداء دينه!

- جميل.. و لكن من تُراكَ جعلتَه أميرًا على الأسطول؟

- سؤالٌ كنتُ أنتظرُ أن تسألَنيه.. إنني لم أرَ أحدًا أكفأَ و لا أقدرَ على قيادة الأسطول و النكاية بالافرنج في البحر و مقارعتهم من الأمير الحاجب حسام الدين لؤلؤ؛ فهو الذي اشتهرت غزواته و وقعاته البحرية في عهدنا، فأضحى لا يُشقُّ له غبار، و لا يُلحق شأوُه في الغزو على البحار.. و يكفيك أن تعلم بأنَّ كسرنا للافرنج في مرج العيون ببانياس ثم استنقاذِنا لحصن يعقوب منهم- كما حدَّثتُك من قبل- قد تزامنَ مع كسرةٍ لهم أخرى على البحر أمام أسطولنا الذي قاده يومئذٍ حسام الدين! فأبلى و جنودُهُ يومئذٍ أعظم البلاء، و فتكوا و نكَّلوا بالأعداء، و هذا من أجمل الصدف و أحسنها، و هو نصرٌ مضاعفٌ لنا و كسرةٌ مضاعفةٌ لهم، فلله تعالى وحده الحمد و المنَّة على ذلك.

- لله درُّه من مجاهدٍ فذٍّ و مغوار!.. فقلَّما نسمع عن أمثاله ممن يُجيدون الغزو على البحار، و إنَّ اشتهار اسمه فقط بين صفوف الأعداء لهو عين الفَخار و دليلٌ على بسالته أمام أولئك الملاعين الكفَّار.

- صدقت.. و إننا -إذ هو كذلك- لـمُكرِمون له و رافعون من شأنِه عندنا هو و أمثاله، و ليس أحدٌ أحبُّ إلينا و أقربُ لنا من المجاهدين الحُذَّق الشجعان الذين لا يخافون في الله يومة لائم، و الذين يُعِزُّ الله بهم دينَه و يُذلُّ أعداءَه، فجزاه الله خيرًا على ما قدَّم للإسلام و المسلمين.

- و كـ..

- عذرا على المقاطعة أخي!.. قد أخبرتك أن قائد أسطولنا كان حسام الدين لؤلؤ، و لكن فاتني أن أحدِّثك عن أني قد جعلت أخي الملك العادل سيف الدين مسؤولا عاماً على كل شؤون البحر و الغزو عليه، بما في ذلك الأسطول، و قد اختار أخي صفي الدين عبد الله بن علي نائبًا له.

- نعم قد فهمت، و ما اختيارك لأخيك الـملك العادل إلا دليلٌ على اهتمـامك الجزيل بالغزو على البحر.

- و هو كذلك.

- و الآن هلا قصصت عليَّ خبر يوم حطين من أوله إلى آخره مولاي السلطان؟!.. فإني و الله أبغي سماعه منك على أحر من الجمر.

- سأفعل إن شاء الله.. و لكن قد حصلت بعض الحوادث قبل الاستعدادات التي سبقت يوم اللقاء الفصل مع أعداء الله، فأودُّ أن أسردها لك في عجالة حتى تكون على درايةٍ كاملةٍ بخبر حطين.. و هي أحداثٌ يرى كلُّ مسلمٍ ذي بصيرةٍ و إيمانٍ بأنها من عظيم تدبير الله تعالى و حكمته لتكون مبدأ نصرنا على الافرنج في حطين و ما بعدها.

- تفضل بالحديث مولاي السلطان..فأنا بين يديك كلِّي إصغاءٌ لحديثك.

- لقد حصل -بادئ ذي بدءٍ- انقلابٌ في مواقف الروم معنا؛ فبعد أن كانوا متواطئين مع الافرنج ضدنا خلال سنواتٍ طويلةٍ أضحوا بعد موت مَلِكِهم مائلين إلينا و حريصين على تحسين علاقاتهم معنا؛ فأطلقوا مَن بأيديهم مِن أسرانا، و أعادوا فتح جامع المسلمين في

قسطنطينية، و عُقِدَت بيننا معاهدةٌ ارتَضَيْنَاهَا و تقوَّينا بها، فكان من آثارها أنَّ الروم التزموا الحياد و لم يجرؤوا على نقضها في حطين و في ما بعدها، و في ذات الوقت كانوا في عداءٍ و تضادٍّ مع الافرنج.. و مما حصل أيضًا هلاكُ صاحبِ بيت المقدس في منتصف سنة اثنتين و ثمانين (582هـ) بسبب مرض الجذام، فنشأت الخلافات بين أمراء الافرنج و مقدِّميهم أيُّهم يخلفه على المُلك، و قد كنا معاشر المسلمين نترقب أوضاعهم عن كثب، و تصلنا أخبارهم يومًا بعد يوم دون كذب.. فحدَث أن علمنا أنَّ أرملة صاحب بيت القدس الذي توفي قد تزوجت من أحد المقدَّمين الافرنج و فوَّضت المُلكَ إليه على حساب صاحب طرابلس الذي عهد إليه الملك المتوفي الوصاية على ابنه من بعده.. فغضب صاحب طرابلس و غاضه الأمر، و سعى لنزعِ المُلكِ من زوج أرملة صاحب بيت المقدس، و لكنه عجز فلم يقدر، فكان مما قدَّره الله من أسباب نصرنا في حطين أن استنجد بنا صاحب طرابلس و طلب نُصرتنا له و عقدِ معاهدةٍ معنا، و إنك تعلم ما في هذا الأمر من عظيمِ شقٍّ لصف الإفرنج و كبيرِ وهنٍ لهم!

- فهل وافقت على مساعدته مولاي السلطان؟

- بلى..كانت تلك فرصةً قمنا باستغلالها حين وافقنا على طلبه؛ لِما في ذلك من ضعف الأعداء و وَهَنِهِم، فقويَ بنُصرتِنا له و شدَّينا عضُدَه بفكاك أسرَاهُ عندنا حتى زاد عدد أصحابه ازديادًا غير قليل، و كانت مدَّة ما عاهَدَنا عليه أربع سنين.. فلما رأى بقية الافرنج ذلك توجسوا منه خيفةً و خشية، و راحوا يُداوِرونه تارةً و يُمارونه تارةً أخرى، و لكن بلاءه عليهم كان كبيرًا حتى كان الجميع قاب قوسين أو أدنى من الاقتتال، لولا أن فطنوا لخطورة ذلك عليهم و أثره الجميل علينا!

- سبحان الله!

- و مما حصل أيضًا قبل اللقاء الفصل: نقضُ صاحبِ الكرك الغادر (أرناط) للهدنة بيننا و بين صاحب بيت المقدس، و قد حكيتُ لك طرفًا من ذلك قبل الآن، و لكنني لم أخبرك أنَّ

ريبةً و شكًّا عظيمَيْن قد وقعا في نفسَيْ صاحب الكرك و صاحب بيت المقدس من بعضهما، و هو ما جعل صفَّ الافرنج يتصدَّع و ينشق.. أما نحن المسلمين في ذات الحين فقد جعلنا الوحدة نصبَ أعيننا و نبذنا أسباب النزاع و الفشل بفضلٍ من الله تعالى وحده.. فكانت كلُّ بلادنا جسدًا واحدًا ضد الافرنج الملاعين؛ في مصر و الشام و الموصل و الجزيرة، و جيوش هذه البلاد كلها بين يدينا نجاهد بها في سبيل الله لدحر الأعداء و نصرة دين الله.

- جزاكم الله عن الإسلام و المسلمين خير الجزاء مولاي السلطان!

ثم أكمل السلطان حديثه قائلا:

- و كانت آخر الأحداث المهمة التي سبقت يوم حطين انتصارنا على الافرنج في عين الجوزة قرب حطين انتصارًا مدويًا بفضل الله ﷻ؛ فقد انتخبتُ فريقًا من الفرسان المجاهدين و أرسلته إلى عين الجوزة، و هنالك التقى بجمعٍ كبيرٍ من الافرنج و دارت معركةٌ ضاريةٌ نزل فيها نصر الله على جنوده المؤمنين و كسره على الكافرين، فكان ذلك باكورة البركات و مقدمة ما بعدها من الانتصارات.

- الحمد لله أن نصركم في ذلك اليوم.. فماذا بعد؟

- فلما رجع فرساننا إلى المعسكر شرعنا في الانطلاق صوب حطين، و كنت قد استدعيتُ أمراءَ الأمصار بجيوشهم فاجتمع بين يدي من المجاهدين ما يربوا عن الاثني عشر ألفًا (12،000) ما بين الفرسان و المشاة، و فوق ذلك وُفُود الآلاف من المجاهدين المتطوعين من شتى أنحاء البلاد المسلمة.

- و ماذا عن تِعداد الافرنج؟ أكانوا أقلَّ منكم أم أكثر؟

- بعدما وصَلَهم - لعنهم الله- خبرُ اجتماع جند الإسلام لقتالهم و مسيرنا صوبَهُم أخذ الذُّعر منهم مأخذه، و نسي أمراؤُهُم بين ليلةٍ و ضحاها خلافاتهم و اجتمعوا على هيئة رجلٍ واحد، فـ..

- و هل كان صاحب طرابلس منهم؟

- نعم، لقد انضمَّ إلى صفِّ إخوانه الملاعين بعدما نقض المعاهدة التي أبرَمَها معنا و نكثها، و الحمد لله الذي بيَّن لنا طبائع الكفَّار و خِصالهم و أنَّه لا عهدَ لهم و لا أمان، فإننا لم نعقد هدنةً أو معاهدةً قطُّ مع فريقٍ من الافرنج إلا و نحن ننتظر منهم النكث و عدم الوفاء.. و بالنسبة لعدد ما اجتمع منهم فإنه كان عظيمًا زهاء خمسين ألفًا (50،000).. بل و يزيدون.. و لكن كم من فئة قليلة غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله، و الله مع الصابرين!

- لله درُّكم! قد كنتم فئةً قليلةً، و الافرنج فئةٌ كبيرةٌ، و لكنكم صدقتُم الله فصَدَقكم، و صبرتم أمامهم فمنحَكُم أكتافَهم و نصرَكُمْ، فالحمد لله على منِّه و فضله!.. و ماذا بعد؟

- بعدها قررتُ السير بنصف الجيش إلى طبرية، فامتلكناها دون قلعتها التي بقيت بيد الافرنج، و قد كانت تحكمها حينئذٍ زوجُ صاحب طرابلس معه بالإرث.. فكنا نتوقع زحفَ الافرنج قاطبةً إلى طبرية و على رأسهم صاحب طرابلس الذي لابدَّ أنَّه تضايق من أمرنا و اشتدَّ عليه حال أهلِهِ، و لكن سبحان الله! فالذي حصل كان غير ذلك.

- و ما حصل مولاي السلطان؟

- لقد تضاربت آراء الافرنج فيما بينهم؛ ففيما عزم صاحب بيت المقدس و مقدم الداوية و صاحب الكرك و آخرون المسير إلينا و مُنَازلتنا، كان رأي صاحب طرابلس أن يبقوا حيث هم متواجدون في صفورية و رأى بأنَّ جيوشَنا من الكثرة و القوة بمكان حتى أنه لا يمكننا الصبر على المكوث بنصفها في طبرية مدةً طويلةً، فنود و لا نظفر بشيء!.. و لكن لأنَّ الرَّأي هو رأيُ الأغلبية فقد استقرَّ القرار بمسير الافرنج من صفورية إلى طبرية بعدما وبَّخ رؤوسُهُم صاحبَ

طرابلس و أغلظوا له القول، و اتَّهموه بالانحياز إلينا و الخشية مِنَّا!.. و في ذلك قد حصل لنا المطلوب، و كمل المخطوب، و جاءنا ما نريد، و سنلقاهم بالحد الحديد و البأس الشديد، و إذا صحَّت كسرتهم و قُتِلت و أُسِرت أُسرتُهُم، فإنَّ طبرية و جميع الساحل ما لنا من دونها دافع و لا عن فتحها مانع!

- ليت شعري ما أغبى ما أقدَّموا عليه!.. فكيف لهم تحمُّل عناء المَسير على طول الطريق بين صفورية و طبرية، و تكلُّف جهدٍ فوق الجهد الذي سيبذلونه يوم اللقاء الفصل؟!

- صدقت.. و لكن كان غباؤهُم ذلك من رحمة الله بنا و منِّهِ علينا دون حولٍ مِنَّا و لا قوة، فكان ذلك سببًا من أسباب نصر الله لنا عليهم.

- و هل فكَّرت يوماً أن تشنَّ هجمات استنزافٍ على الافرنج تُضعِفُ قوتهم يوماً بعد يوم؟!

- إنك تعلمُ أخي أنَّه ما من قرارٍ حاسمٍ أو أمرٍ جازمٍ أفْتكِرُهُ إلا و يكون من الواجب عليَّ أن أستشير -قبل المضي فيه- أركانَ جيشي و كلَّ من هو أهلٌ للشورى في معسكري، و هذا مقتضى أمر الله تعالى: ﴿وَ شَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾.. فلما عرضتُ الأمر عليهم رأى فريقٌ منهم ضرورة شنِّ الغارات على الافرنج، أو ما دعوتَهُ أنتَ قبل قليل بـ(هجمات الاستنزاف) تكرارًا حتى يضعفوا. و رأى الفريق الآخر عكس ذلك حيث أشاروا عليَّ بمواصلة الاجتهاد في الإعداد للقاءٍ فاصلٍ مع الافرنج الملاعين.. فتوكَّلتُ على الله تعالى بعد أن مِلتُ كلَّ الميل إلى رأي الفريق الثاني لأسباب كثيرةٍ عن قناعةٍ و رضىً.

- يبدو أنَّ من أهم تلك الأسباب: الحرص على بقاء المجاهدين القادمين من باقي أقطار الإسلام أقصر فترةٍ ممكنة، و استغلال الشِّقاق الحاصل بين قواد الافرنج، و ضعف نفسيتهم و معنوياتهم في مقابل قوة معنويات المسلمين.

- للهِ درُّك! نعم إنَّ ما ذكرتَهُ كان من جملة الأسباب التي جعلتني أقرِّرُ خوض لقاءٍ فاصلٍ، زِد على ذلك أنَّ الأمور لا تجري بحكم الإنسان، و نحن لا نعلم قدر الباقي من أعمارنا و لا

ينبغي أن نُفرِّق جمع المسلمين إلا بعد الجدِّ بالجهاد.. و كذلك لاحت الفرصة أمامنا و سنحت لنا بأن نختارَ نحنُ موضعَ النِّزال الذي يليق بنا، لا أن يختاروهُ هُم، و ذلك كما ترى عاملٌ قويٌّ يجعل النصر أقربَ إلينا و أبعدَ منهم.

- و هل لك مولاي السلطان أن تَصِفَ لي الموقع الذي اخترتموه من حطين؟

- أجل.. لقد بدأنا باحتلال أماكن وجود ينابيع المياه المتفرقة في تلك الأرض المقفرة الواقعة غربي طبرية، و هذا جَعَلنا أصبرَ من الافرنج على مواصلة القتال، خاصَّةً و أنَّ الأيام تلك كانت أيَّام حرٍّ و رَمَضٍ شديد. و كذلك كانت الرياح تجري باتجاه الموضع الذي سيصطفُّ فيه الافرنج، و كانت ذات شواظٍ محرقٍ عملَ عملَه فيهم يوم اللقاء و لله الحمد، فزادتهم ظمأً و أُوارًا.

- الحمد لله..لا شكَّ أنَّ تلك الرياح كانت جندًا من جنود الله، قال تعالى: ﴿وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

- نعم، و لا أُنسِيكَ أنَّ اختيارنا للموقع كان -أيضاً- باعتبار وجود المراعي و وفرة العشب و الكلأ الذي تحتاجه الدواب و الأفراس على اتساع ينابيع المياه التي سيطرنا عليها، و كل ذلك لا يتوفر في الجانب الآخر الذي سيُعسكِرُ فيه الافرنج.

- و ماذا بعد هذا؟

- لما أقبَلَ جيشُهُم يوم الخميس لسبعٍ بقينَ من ربيع الآخر سنة ثلاثٍ و ثمانين (583هـ)، أبصرناهُ في حالةٍ يُرثى لها من شدة العطش و بالِغِ الضَّنك، و كانوا -لعنهم الله- يحملون معهم صليب الصّلبوت و بعضهم لا يقدر حتى على حمل نفسه على القتال من فرط العطش و التعب!.. و بعدما عبَّأتُ جيشيَ تعبئة الحرب و حدَّدت موضع كلِّ أميرٌ في القتال، كان الموعد مع العدو صباح يوم الجمعة، و قد كنتُ دائمًا ما أسعى للموافقة بين المعارك و بين أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فلربما كانت أقرب إلى الاستجابة!..

- يا له من أمرٍ جميل!.. فكذلك فعل ملك السلاجقة الكبير أبو شجاع ألب أرسلان قبل وقعته المشهورة ضد الروم سنة ثلاثٍ و ستين و أربعمائة (463هـ)؛ فقد سمعتُ أنَّ الإمام أبو نصر البخاري الحنفي قال له: «إِنَّكَ تُقَاتِلُ عَنْ دِينٍ وَعَدَ اللهُ بِنَصْرِهِ وَ إِظْهَارِهِ عَلَى سَائِرِ الأَدْيَانِ، وَ أَرْجُوا أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ كَتَبَ بِاسْمِكَ هَذَا الفَتْحَ، فَالقَهُمْ يَوْمَ الـجُمُعَةِ فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَكُونُ الـخُطَبَاءُ عَلَى الـمَنَابِرِ، فَإِنَّهُمْ يَدْعُونَ لِلْمُجَاهِدِينَ»!.. فكان هذا سبباً من أسباب انتصارهم على جحافل الروم الكفار.

- صدقت أخي.. و بالنسبة لبداية القتال فإننا قد حملنا على الكفار حملةً منكرةً حتى تضعضعوا و اندكَّت صفوفهم على إثرها، و أبلى المجاهدون أحسن البلاء حتى أنَّ منهم من أعمل السيف في العدو فقتل ما يزيد عن الخمسة، و منهم من أفنى أربعةً.. و لم نزل نقتُلُ منهم ما لا يُعَد حتى أسدل الليلُ ستاره بيننا فتحاجزنا.. و في يوم السبت أصبحنا كما أمسينا على مواقعنا، فحملنا هذه المرة حملةً أشدَّ وطأةً على الافرنج من سابقتها و المسلمون يصيحون بالتكبير صيحة رجلٍ واحدٍ، فألقى اللهُ الرعب في قلوب الكافرين، و قام بعضنا بإحراق الحشيش الذي يتوسط جيشَ الافرنج و قد كان كثيرًا، فاجتمع عليهم الظمأ و حرُّ الزمان و حر النار و الدخان و حر القتال!

- الله أكبر! الله أكبر! و ماذا بعد؟!

- حينئذٍ بلغ الخوفُ و الهلعُ مبلغاً عظيماً في نفوس الأعداء، و أدركوا أنه لن يُنجيهم من الموت سوى الإقدام عليه؛ فهو محيطٌ بهم من كلِّ جانب، و السيوف تُعمَل في رقابهم كل لحظةٍ، فحملوا علينا حملاتٍ كادوا أن يزيلونا بها لولا لطف الله تعالى بنا، و لكن ما هو إلا أن أحطنا بهم إحاطة السوار بالمعصم حتى انهارت عزائمُهُم، و وهنت قواهم، و فتَّ في أعضُدِهِم قَتْلُنا لمقدّميهم و جمعٍ عظيمٍ من جندهم.. و كذلك من أكبر الأسباب التي أمضت الوهن في نفوسهم هو اتفاق صاحب طرابلس مع جمعٍ من جنود الافرنج و حملوا على من

يليهم من المجاهدين بعدما يئسوا من التغلب علينا، و هنا شقَّ لهم ابن أخي تقي الدين عمر- الذين قدَّمتُهُ في تلك الناحية- الطريق فانسلوا و هربوا منه.

- و ماذا عن ملكهم الكبير صاحب بيت المقدس؟

- بعدما هرب صاحب طرابلس و جمعٌ من مقدَّمي الافرنج و أمرائهم تقهقر الباقون منهم و انحصروا أمام التل الغربي لـحِطين، فصعد رهطٌ منهم إلى قمة ذلك التلِّ و نصبوا عليه خيمة الـملك و وضعوا أمامها صليب الصلبوت و أحاطوا به و شدَّدوا الإحاطة.

- و ما خبرُ صليب الصلبوت هذا؟

- إنَّ الافرنج -لعنهم الله- يزعمون أنَّ صليب الصلبوت ذاك فيه قطعةٌ من الخشبة التي صُلِب عليها نبي الله عيسى عليه الصلاة و السلام! و لكن الله تعالى أخبرنا أنهم ما قتلوه و ما صلبوه، و لكن شُبِّه لهم.

- قاتلهم اللهُ ما أضلَّهُم! و ماذا حصل بعد؟

- لقد انعقدت عزيمتي على إسقاط خيمة الـملك و الاستيلاء على صليبهم، فزحفنا صوب قمة التلِّ مُكبِّرين، و على إسقاط الخيمة و تشريد الافرنج عازمين، فدارت عليها معمعةٌ قويةٌ بعد أن استبسل الافرنج في صدِّنا استبسالاً عظيماً، و لكن لم يدم الحال طويلًا حتى تداعت الخيمة بسيوف الـمجاهدون و شُرِّد ملكُهم في العراء، عندئذٍ تيقّنَّا من نصر الله لنا فسجدتُ و من خلفي الأمراء و العلماء سجدة الشكر لله تعالى، و حمدنا الله كثيرًا، و قد بكيتُ من الفرح بذلك النصر الـمُبين الذي أكرمنا الله تعالى به، فاللهم لك الحمد حتى يبلغ الحمد منتهاه.

- الحمد لله. تالله لكأنني ُ أرى الـمشهد أمام عينيَّ و أنتم فرحون بنصر الله، جزاكم الله خيرًا.. و بالمناسبة؛ إنَّ لي بعض ما أنشِدُه من شعر القاضي العماد الأصفهاني و الشيخ شهاب الدين الشاغوري إن أذِنَ لي مولاي السلطان؟!

- بلا شك أخي الكريم.. هاتِ ما عندك، فكم يُعجبني شعرُ العماد!

- قال العماد:

يـا يـوم حطـين و الأبطـالُ عابسـةٌ ... و بالعجاجة وجهُ الشمس قد عَبَسَا
رأيـتُ فيـه عظـيم الكفـر مُـحتَقراً ... مغفَّـراً خـدُّهُ و الأنـف قـد تَعَسَـا
يا طُهرَ سيفٍ برى رأسَ البرنس فقد ... أصاب أعظم من بالشِّرك قد نُجِسَا
و غـاص إذ طـارَ ذاك الـرأسُ في دمـه ... كأنـه ضـفدعٌ في المـاء قـد غَطسَـا
عـرَّى ظُبـاه مـن الأغمـاد مُهرَقَـةً ... دمـاً مِـن الـشرك ردَّاهـا بـه و كَسَـا
مَـنْ سـيفُهُ في دمـاء القـوم مـنغمسٌ ... مِن كلِّ مَن لَـم يزل في الكفر مُنْغَمِسَا
أفنـاهم قـتلهم و الأسرُ فانتكسـوا ... و بيـتُ كُفـرهم مِـن خبـثهم كُنِسـا

و قال أيضاً مُخاطباً إيَّاك:

سَـحَبْتَ عـلى الأردُنِ رُدْنـاً مـن القِنـا ... رُدَيْنيَّـةً مُلْـداً و خَطِّيَّـةً مُلْسـا
حَطَطْـتَ عـلى حطِّـين قـدْرَ ملـوكِهِم ... و لـم تُبْقِ من أجناس كُفرِهِم جِنْسا
و نِعْـمَ مجـال الخيـل حطِّـين لـم تكـن ... معارِكُهـا للجُـرْدِ ضِرْسـاً و لا
غـداةَ أسـود الحـرب تعتقـلُ القِنـا ... أساودُ تبغي مِن نحور العِدى نَهْسا
أتَـوْا شُـكُسَ الأخـلاقِ خُشـناً فليَّنـتَ ... حـدود الرِّقـاقِ الخُشْـنِ أخلاقِهـا
طـردتَهُم في الـملتقى و عكَسـتَهُم ... مُـجيداً بحُكـمِ العَـزْمِ طـرْدَك و
فكيـف مكسـتَ الـمشركين رؤوسَـهُمْ ... و دأبُـكَ في الإحسـان أن تُطلِـقَ
كسـرتَهُم إذ صـحَّ عزمُـكَ فـيهم ... و نكَّستهم إذ صار سَـهْمُهُم نَكْسا
بواقعـةٍ رُجَّـت بهـا الأرض تحَـتهُم ... دمـاراً كمـا بُسَّـت جبـالُهم بسَّـا
بطـونُ ذئـاب الأرضِ صارت قُبُورهم ... و لم تَرْضَ أرضٌ أن تكونَ لهم رَمْسا
و طـارت عـلى نـار المـواضي فَرَاشُـهم ... ضـلالاً فـزادَت مـن خُمُـودهم قَبْسا

أما الشيخ الشهاب الشاغوري فمما أنشده:

جاشت جيوشُ الشِّرْكِ يوم لَقَيتَهُم ... يتدامرون على مُتُون الضُّمَّرِ
أوْرَدتَ أطرافَ الرِّماح صُدُورَهم ... فَوَلَغْنَ في عَلَقِ النَّجيعِ الأحمرِ
فهناك لم يُرَ غيرُ نجمٍ مُقبِلٍ ... في إثرِ عفريتٍ رجيمٍ مُدبرِ
فمَن الذي مِن جيشِهِم لم يُخْتَرَم ... و مَن الذي مِنْ جَمعِهِم لم يؤسرِ
حتى لقد بيعت عقائلُ أُرهِقَت ... بالسَّبي بالثَّمن الأخسِّ الأحقرِ
سَقتِ المماليكُ الكرامُ مُلُوكَهُم ... كأساً به سَقَتِ اللئيم الهَنْفَرِي
و عَجَمْتَ عودَ صليبِهِم فَكَسَرتَهُ ... و سِواكَ ألفاهُ صليبَ المَكسَرِ
أغلى الأداهِمِ مَن أسَرْتَ و أُرْخِصَت ... بيضُ الصَّوارِمِ من نِهابِ العسكرِ
و جعَلْت شرقَ الأرضِ يحسُدُ غربها ... بك فهو داعِ دعوة المستنصرِ
لا يَعْدَمَنْكَ المسلمونَ فكم يدٍ ... أوْلَيتَهُم معروفها لم يُنْكَرِ
أمَّنْتَ سِربَهُم و صُنْتَ حريمَهُم ... و درأتَ عنهم قاصماتِ الأظْهُرِ
ما إن رآك اللهُ إلا آمراً ... فيهم بمعروفٍ و مُنكِرَ مُنكَرِ
متواضعاً لله جلَّ جلالُهُ ... و بِكَ اضمحلَّت سطوَةُ المُتكبِّرِ
لم تخلُ سَمْعاً من هناءِ مُهنِّئٍ ... للمسلمين و مِن سَمَاع مُبشّرِ
و استعظَمَ الأخبارَ عنك معاشرٌ ... فاستصغروا ما استعظموا بالمَخْبَرِ
مَضَت الملوكُ و لم تنلْ عُشرَ الذي ... أوتِيتَهُ من مَنْجَح أو مفخرِ

- أجمِل بها من أبياتٍ، وددتُ لو أنَّ أحداً يُسمِعُها لي كلَّ يومٍ؛ فإنَّ لِذِكرى حطين في نفسي وقعٌ عظيمٌ، و الحنينُ إلى ذلك اليوم يزدادُ في قلبي يوماً بعد آخر.. فجزاكم اللهُ أنتَ و العمادَ و الشاغوري خيراً على هذا الإنشاد البهيج.

- و إياك مولاي السلطان.. و بعد النصر في حطين ماذا جرى لـملكِ الافرنج و مَن بقي معه حول الخيمة؟!

- لقد أسره مُجاهدونا بعد سقوط خيمته، و أسروا كذلك مَن معه من الأمراء و القواد.. و قد كان من بينهم مُقدم الداوية و صاحب الكرك الغادر أرناط!

- يا لِسوء عاقبة أرناط! الويل له!

- نعم، و قد أمرتُ أن تُقام لي خيمةٌ مكان خيمة الـملك الافرنجي الكبير، فاستقبلتُ فيها كُبراء أسرى الافرنج في قيودهم استقبالاً حسناً يليق بنا كمسلمين و جنودٍ للإسلام، فأجلستُ الـملك الكبير بجانبي و جلس بجواره صاحب الكرك، أما الآخرون فأخَّرتُهُم قليلًا.. فعندئذٍ أبصرت أمارات الظمأ باديةً على الـملك أمرتُ له بالماء فشرب حتى ارتوى، و لكنه لما دفع بالبقية إلى أرناط استشطتُ غضباً و أعلمتُهُ بأنَّه لم يشرب بإذني فينال أماني، و ليس له عهدٌ عندي، و قد خبَّرتُك سابقاً أني نذرت لله إن أنا ظفرتُ به أن أقتله، و رحتُ أوبِّخ الملعونَ و أُذكِّرُهُ بجرائمِهِ و سخريته من الرسول الأعظم ﷺ و كلِّ ما اقترفَه بحقِّ الحجيج الـمسلمين على مدار السنين الفارطة، فلمَّا أبلغَهُ الترجمان كلامي قال بلسانه السَّليط: «قَدْ جَرَتْ بِذَلِكَ عَادَةُ الـمُلُوكِ!!».. بعدها عرضتُ عليه الإسلام و ألححت في عرضه عليه عسى أن يُثقل اللهُ ميزان حسناتي يوم القيامة بإسلامه على يديَّ، و لكنَّ الخبيث أبى و امتنع، و هنا لم أجد بداًّ من رفع السيف و ضربه به بعد أن قلت له: «هأنذا أستنصر لمحمد!». و تمَّم عليه من حضر.. و أما الملك الكبير فقد خاف لما رأى ما جرى لصاحبه أرناط، و ظنَّ أني سأفعل به ذات الفعل، و لكني قلتُ له: «لَـمْ تَـجرِ عَادَةُ الـمُلُوكِ أنْ يَقْتُلُوا الـمُلُوكَ، أمَّا هَذَا فَإنَّه تَـجَاوَزَ حَدَّه فَجَرى مَا جَرَى»، فأطلقتُ سراحه بعدها.

- و ماذا فعلتَ بما بقي من الأسرى؟

- قد أحضرتُهم جميعًا و أمرتُ بإرسال أكثرِهِم إلى دمشق ليتم الاحتياط عليهم، أما الباقون فقد كانوا من فرقتا الداوية و الاسبتارية، و هؤلاء لم أجد بداً من القضاء عليهم، إلا من أسلم منهم فقد استبقيتُهُم في معسكري.

- أَوَقَتلتهُم فعلاً مولاي السلطان؟!.. أليس حُكم العدو المقاتل في ساحة القتال مختلفاً عن حُكمِهِ حين يقع في الأسر لقول رسول الله ﷺ: «اِسْتَوْصُوا بِالأَسَارَى خَيْراً».و هو هاهنا الإحسان إليه لا قتله؟!

- كلامك صواب، و ذلك مما لا يخفى عليَّ و أنا الذي يُرافقني العلماء و الفقهاء أينما حللتُ و ارتحلت، و لكن اِعلم أنَّ اختصاصي لفرسان الداوية و الاسبتارية بالقتل كان بسبب شدة وطأتِهم علينا و خُبثِهم مِن جميع جنود الافرنج الآخرين، فكان لابدَّ لنا من قتلهم لنُريح الناس من شرِّهم و وطأتِهم، و لو أنِّي عفَوت عنهم لرجعوا إلى غيِّهم و لمادوا في طغيانهم يعمهون، و لقاتلونا مجدَّداً قتالاً أشدَّ من ذي قبل.. ثم كتبت إلى نائبي على دمشق بأن يقتُلَ كلَّ الذين دخل منهم البلادَ و ألا يدع أحدًا يُفلِت من جزائه المستحق.

- عجباً لهم! فلم أكن أتصوَّرُ يوماً أنَّ فرسان الداوية و الاسبتارية بهذه الخطورة التي دفعتك للتخلُّص منهم دون غيرهم من أسرى الافرنج.. يبدو أنَّ حقيقتهم خافيةٌ على معظم الناس!

- لا شك في ذلك؛ فالحكاية أنهم ألبسوا أنفسَهم رِدَاء القداسة و النور ففُتِنَ بهم الناس، و حملوا لواء حماية الحجاج القادمين إلى القدس الشريف فصدَّقهُم العوام و التفُّوا حولهم، و ما ذلك على الصحيح إلا تلبيسٌ لأولئك العوام و كذبٌ عليهم، و ادِّعاءٌ باطلٌ لحماية حجيج النصارى إلى بيت المقدس؛ فقد أثبت الواقع عندما نزلوا إلى سواحل الشام أنهم مجرد لصوص مجرمين همُّهُم الأكبر كسبُ المُلك و الأرزاق و لو كان ذلك على قتل الشيوخ و النساء و الصبيان و الضعفاء؛ المسلمين منهم و غير المسلمين. و قد علم أصحابُهُم ذلك و لكنهم خافوا

من سطوتهم و بطشهم ففسحوا لهم طريق القدس الشريف حتى تملَّكوها قبل تسعين عامًا و أزيد.

- و ما الذي لاقاه حجيج النصارى حتى يدَّعي فرسان الداوية و الاسبتارية حمايتهم؟!

- إنهم يكذبون و يفترون يا أخي! فالذي كذب على الله تعالى و حرَّف كلامه العظيم عن موضعه يسهل عليه الكذب و التحريف في حقِّ البشر إن رأى في ذلك مكسبًا للمال و المُلك!.. و المقصود أنَّ قساوستهم و رهبانهم زعموا أنَّ المسلمين و ملوكهم في الشام يضطهدون إخوانهم النصارى و يسومونهم سوء العذاب، فلما سمع الناس هذا الزَّعم الكاذب بلغت حميَّتُهُم لدينهم المبلغ الذي أراده أولئك القساوسة و الرهبان المجرمين، فسيَّروهم تحت ألوية الأمراء و غزوا سواحل الشام فاستولوا على بيت المقدس بعد أن قتلوا ما يزيد عن السبعين ألف مسلمٍ و مسلمةٍ قتل البهائم!!

- يا لِقُبحهم و قُبحِ ما يزعُمون! تالله إنَّهم لقومٌ مجرمون، فلا عجب ممن افتروا على الله و باعوا دينهم بثمنٍ بخسٍ أن يُبيدوا الناسَ لقاء مُلكٍ زائلٍ أو مالٍ فانٍ، و لو أنَّ هنالك جزاءً في حقِّهم في الدنيا أكبر من القتل لكانوا به جديرين و له مستحقِّين.. قاتلهم الله.

- صدقت أخي.

- و ماذا بعد النصر في حطين؟

- بعد ذلك فكَّرتُ في المسير المباشر إلى بيت المقدس و طرد ما تبقى من الافرنج منها، و لكني تذكَّرتُ مدن الساحل الشامي التي وجب علينا امتلاكُها و السيطرة على موانئها حتى نجتنب نزول دفعاتٍ جديدةٍ من الافرنج عبر البحر فيجعلنا ذلك في اضطرابٍ من أمرنا بعد دخول القدس الشريف، و هو ما حصل عندما سرنا إلى طبرية فامتلكناها، ثم فتحنا عكا، و يافا، و الناصرة، و قيسارية، و حيفا، و نابلس، و تبنين، و صيدا، و بيروت، و عسقلان، و غزة، و الجملة الباقية من بلاد الساحل و كافة ما يُحيط بالقدس، عدا مدينة صور.

- غريب!..و ما السبب وراء تركِكُم لصور فلم تفتحوها كأخواتها؟

- لقد تجمَّعت في صور فلوُل الهاربين و الشاردين من بلاد الساحل التي فتحناها، و هم من الكثرة بمكان، و زيادةً على كونها محصَّنةً بجبالها و قِلاعها و أسوارها؛ فإنَّ أميرًا من أمراء الافرنج قد قَدِمَ بعد نصر حطين عبر البحر قادماً من قسطنطينية و نزل في عكا من ساحل الشام، و لكنه لما فطِنَ إلى امتلاكنا لها و لغالب بلاد الساحل سارَ متعجِّلاً بأمواله الجزيلة حتى وصل إلى صور بعد علمه بوجود الافرنج فيها، فزاد من تحصينها و جدَّد حفر الخنادق من حولها خوفاً من أن نملُكها، و قد كان قدومه إليها في وقتٍ لم يجد الافرنج فيها قائداً يقودهم و لا مقدم يقاتل بهم، فكان هو القائد و المقدم لديهم.. فلما بلغني أمرُهُ آثرت تأخير فتح صور إلى حين الفراغ من بقية البلاد الساحلية و بيت المقدس، و ذلك الذي حدث بعدئذٍ لكن الله شاء أن نُخفِقَ في فتحها رغم حصارنا الشديد لها و تضييقنا المستميت على أهلها.

- يا للخيبة! و لكن يكفي -و الله- أنكم أفلحتم في فتح بلاد الساحل ما خلا صور في وقتٍ وجيزٍ، فإنَّ الإنسان مهما قَوِيَ و عَظُمَ أمرُهُ يبقى ضعيفاً أمام مشيئة الله تعالى، و لا يُكلِّف اللهُ نفساً إلا وسعها.

- صحيح ذلك يا أخي.. و المهم أنَّه بعد ذلك كنتُ قد أمرت أخي الملك العادل سيف الدين في مصر ببثِّ أسطوله على البحر لقطع الطريق عن الافرنج في حاله زحف جحافلهم إلى بلاد الشام بطلبٍ من الأمير الذي قَدِمَ إلى صور و تأمَّر على أهلها، فكان على رأس هذا الأسطول المجاهد البطل حسام الدين لؤلؤ الحاجب.. ثم استدعيتُ جميع العساكر المنتشرة في الساحل، و نظمتها و رتَّبتُها في جيشٍ كبيرٍ قصدتُ به الأراضي المقدسية المباركة، و قد كان انتهاؤنا من فتح البلاد الساحلية عدا صور منتصف شهر رجبٍ من سنة ثلاثٍ و ثمانين (583هـ).. فانطلقنا باسم الله و على فتح القدس عازمين، و لتفتيت شملِ مَنْ فيها مِن الافرنج مصمِّمين؛ فإنَّ شطرَ من نجا في حطين و خرج من البلاد الساحلية التي فتحناها بعد ذلك قد

تجمَّع في بيت القدس و هم يزيدون عن ستين ألف رجلٍ دون النساء و الصبيان، و لكن أكثر أولئك الرجال لم يكونوا أهلاً للقتال و النِّزال، فكان أميرُهم حينئذٍ- و هو صاحب الرملة- مرغماً على أن يُجنِّد الصبيان البالغين و يُحمِّلهم السلاح كارهين.

- و كيف كان عزمُهُم على مقاومتكم و ردِّكم؟

- لقد كان الجميع يرى الموت تحت ظلال سيوفنا أيسرَ و أخفَّ ضرراً من أن يدخل المسلمون بيتَ المقدس فاتحين مكبِّرين، فراحوا يُحصِّنونه بكل ما أوتوا من وسيلة، و صعدوا على أسواره بحدِّهم و حديدهم، و أقاموا المجانيق و ما بقي لديهم من الآلات الثقيلة على حدوده، و باتوا لياليهم تلك مترقِّبين وصولنا و عاقدين العزم على ردِّنا.. فعندئذٍ عزمتُ على توفير ما تيسَّر لنا من المجانيق و غيرها من آلات الحصار الثقيلة؛ كالعرادات و الدبابات و قاذفات النار و كل ما يلزم لنقب الأسوار و دكِّها، و قـ..

- أستسمحُكَ عذراً مولاي السلطان لأني قاطعتُ كلامك.. و لكن هلَّا وصفْتَ لي تلك الآلات الثقيلة التي ذكرتَها آنفاً؟ فأنا لا أفرِّقُ بينها قط!

- لك ذلك أخي.. فأما المنجنيق فإنه آلةٌ كبيرةٌ معروفةٌ لدى العام و الخاص منذ زمنٍ بعيد؛ و عملُهُ قذفُ الحجارة الكبيرة حتى يبلغ مداً طويلاً قد يصل إلى ألف ذراعٍ، و نقلُه من مكانه غالباً ما يكون عسيراً إذا كانت المسافة غير قصيرة.. وأما العرَّادة فهي أصغر من المنجنيق حجماً و أسهل منه نقلاً، و لكنها أشد ضرراً و وطأةً منه عند الرمي إذا كان المُستَهْدَف هو جمعٌ من الجنود أو البشر لا الأسوار و القِلاع.. و أما الدبَّابة فهي الآلة التي يكون في جوفها الجنودُ و تُدفع في أصل السُّور أو الحصن، فينقبه أولئك الجنود حتى يُحدثوا فيه الثغرات و من ثم اقتحامه.. و أما قاذفة النار و تُسمَّى النَّفَّاطة، أو الزَّرَّاقة- فهي الآلة التي يُرمى بها النفط و النار، و هي أشدُّ الآلات ضرراً و شراً و فتكاً على الإطلاق بسبب هذا النفط، و الذي يوكَلُ إليه

الرمي بها يُسمَّى بالنَّفَّاط؛ و النَّفَّاطُ يختصُّ بلباسٍ يلزم أن يكون قماشه غير قابلٍ للاشتعال اتِّقاءً للمخاطر التي قد تترتب على استخدام رمي النفط المشتعل.

- سبحان الله! و ما الذي يحتويه ذلك النفط حتى يكون أشدَّ ضرراً و شراً من الحجارة و السِّهام؟

- إنَّ مواد صُنْعِهِ كثيرةٌ و مختلفة، و لا يُتقن خلطها بالطريقة السَّويَّة إلا الحُذَّاق المَهَرَة، و لكن ما أعرفُهُ هو أنها تحتوي على الكبريت، و مسحوق نورة غير مطفأة، و زيت الأترج، و الكتَّان، و دقيق التبن، و نخالة الحنطة، و دهن البلسان، و شحم الدلفين، و صمغ السندروس، و الراتينج، و قشر التوت، و قشر البيض.

- يا للعجب! و هل تعرفُ من طريقة تحضيرها شيئاً؟

ضحك مولاي السلطان من سؤالي فضحِكتُ أنا لضحِكِهِ، و قال لي مازحاً:

- هل تَعِدُني أنَّك لن تُفشي هذا الأمر لأحدٍ ما؟!

قلتُ مبتسماً ابتسامةً عريضة:

- و هل ذلك إلا أمانةٌ!.. إنَّ صدور الأحرار قبورُ الأسرار مولاي السلطان!

- أجل.. فإنَّه حسبما حدَّثني أحدُ صُنَّاع النفط المشهورين فإنَّه يبدأ بمزج المواد التي ذكرتُها لك آنفاً مزجاً دقيقاً بأوزانٍ مُحَدَّدةٍ لم يُعلِمني بكيفيته، ثم بعدها يقوم بوضع المزيج في قرعةٍ و يركب عليه الانبيق- و هو آلة للتقطير، ثم توقَدُ من تحته نارٌ قويةٌ إلى أن يقطر جميعه، ثم يؤخذ الزيت و تضاف كميةٌ أخرى من مسحوق نورةٍ غير مطفأةٍ و تُضاف إلى الزيت، و هكذا فإنَّه يحرق إحراقاً لا مثيل له، و نارهُ لن تنطفئ بعد قذفها من النَّفاطة حتى تأتي على آخر ما تقع عليه و تحرقه، بل و قد تظل مشتعلةً طويلاً و تزداد اشتعالاً كلما أصابها الماء أو التراب!!

- يا لها من صنعةٍ باهرةٍ! و لكن أخشى أن يكون لدى الافرنج أو الروم علمٌ بها و بطريقة تحضيرها و عملها، فيُضاهوكم بها.

- لا داعي لهذه الخشية، فإننا دائماً ما نسعى للاحتفاظ بها كسِرٍّ من أسرارنا و الحيلولة دون تسريبها إلى العدو، و هي مستورةٌ إلا لمن نرضاه من العلماء و الأعيان الفضلاء.

- إذاً فماذا حصل بعد أن توفرت لديكم آلات الحصار الثقيلة؟

- بعدها زحفنا صوب بيت المقدس في اليوم الرابع عشر من شهر رجب، و كنت قد أنفذتُ طليعةً من جيشي بقيادة أميرٍ من أمرائي اسمه جمال الدين شروين الرازي، فقاتلت هذه الكتيبة حاميةَ الافرنج في القدس أشد القتال، و لكن لم يطُل الحال حتى انهزمت كتيبة المسلمين و استشهد أميرها جمال الدين و جماعةٌ من المجاهدين معه رحمهم الله تعالى، فعندئذٍ بلغ الحزن و الغضب معاً في نفسي مبلغاً عظيماً، و رحتُ أُسرِعُ الخطى في المسير حتى وصلنا بعد يومٍ فقط من انطلاقنا، و عقدتُ العزم على أن أذيق الافرنج الكفَّار جزاء ما عملوا يوم دخلوا هم البيت المقدس و قتلوا سبعين ألف مسلمٍ و مسلمٍ قبل تسعين سنة، و لكني قبل كل شيءٍ عرضتُ عليهم تسليم المدينة مقابل الأمان و السماح لمن شاء بالمغادرة دون ان يمسَّه سوءٌ أو مكروه.

- فماذا كان ردُّهم؟

- لقد أدَّى بهم الغرور و الغطرسة إلى رفض العرض أول ما بلغهم، و بالغوا في رفضه، فعندئذٍ أطبقتُ عليهم الحصار من الجانب الشمال و الغربي و أحطت بأسوارهم إحاطة السوار بالمعصم، و لكننا جوبهنا بمقاومةٍ شرسةٍ منهم حتى استُشهِد منَّا جماعةٌ فاضلةٌ، منهم الأمير عز الدين عيسى بن مالك رحمهم الله جميعاً. و كذلك كانت الشمس مقابلةً لنا فحجبت علينا الرؤية طوال النهار، و بعدئذٍ مكثتُ خمسة أيام و أنا أطوف بالمدينة علِّي أجد موضعاً سهلاً من الأسوار يتيسَّر لنا الولوج عبره، فكان لي ذلك حينما عثرت على موضعٍ في الجانب الشمالي نحو باب العمود و كنيسة صهيون، حيث الأسوار أقلُّ متانةً من أسوار الجوانب الأخرى، فنصبتُ المجانيق ليلاً، و في الصباح تراشقنا و إياهم بالقذائف و قاتلونا قتال المستميتين بحميةٍ عظيمةٍ، ثم وصلنا الخندق و جاوزناه فبدأ النَّقابون بنقب السُّور، و ما هو إلا شعر الافرنج بقُربِ

إحداث ثغرةٍ في السُّور حتى اجتمعوا عاجلاً و بحثوا سُبُل التفاوض معنا على التسليم بالأمان.

- و كيف كان ذلك؟

- لقد ألحَّ بطريركُ الافرنج الأكبر في القدس على الأمير صاحب الرملة لطلب الأمان منَّا لهم بعدما يئس من انصرافنا، فأقبَلَ صاحبُ الرملة يطلُبُ الأمان لنفسه، فأَمَّنتُه، و لكنني لم أُجِبْهُ إلى الأمان للافرنج داخل بيت المقدس رغم استرحامه و استعطافه لي، و ذكَّرتُهُ بما عرضتُهُ عليهم قبل الحصار و كيف أنَّهم رفضوه و هم الآن يعرضون مثله، و قلتُ لهم أنني لن أفعل بهم إلا كما فعلوا بالمسلمين حين ملكوا القدس، و جزاء السيئة بمثلها.. و هنا لم يجد بداً من أن يقول لي يائساً: «أيها السلطان! إنْ لم تُعطِنا الأمانَ رجعنا فقتلنا كل أسيرٍ من أسراكم لدينا بأيدينا و هم خمسة آلافٍ، و قتلنا ذرارينا و أولادنا و نسائنا، و خرَّبنا الدور و الأماكن الحسنة، و أحرقنا المتاع و أتلفنا ما بأيدينا من الأموال، و هدمنا قبة الصخرة و حرقنا ما ما نقدر عليه، و لا نُبقي ممكناً في إتلاف ما نقدر عليه، و بعد ذلك نخرجُ إليكم فنقاتل قتال الموت، و لا خير في حياتنا بعد ذلك، فلا يُقتل واحدٌ منَّا حتى يُقتل أعدادٌ منكم، فماذا نرتجي بعد هذا من الخير؟!».

- فما كان ردُّك مولاي السلطان؟

- لما سمعتُ مقالتَه تلك كظمتُ غيضي و استشرتُ أصحابي من العلماء و الأمراء، فأجمعنا على إجابتهم إلى الأمان؛ على أن يبذل كلُّ رجلٍ منهم عن نفسه عشرة دنانير يستوي في ذلك الغنيُّ و الفقير، و عن المرأة خمسة دنانير، و عن كلِّ طفلٍ و طفلةٍ دينارين، فمن أدَّى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا منَّا، و من انقضت عليه و لم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً لنا.. و كذلك أن تكون الغلَّات و الأسلحة و الدور ملكنا، و أن يتحولوا منها إلى مأمنهم في مدينة صور.

- ما أعظمَكَ و أعظمَ صنيعَكَ مولاي السلطان! تالله إنَّه كان بوسعك أن تردَّ الصَّاع صاعين، و تُقابل سيئتهم بالسيئة، و تُنكِّلَ بهم كما نكَّلوا هم بإخواننا قبل ذلك بتسعين سنة لَمَّا ملكوا القدس، و لكنَّك أبَيْت إلا أن تُشدِهَهُم بأخلاق الإسلام الحميدة و تُظهِرَ لهم المروءة و العفوَ في أبهى صوَرِه، و تقابل سيئتهم بالحسنة.. فجزاك الله خيراً عن الإسلام و المسلمين.

- و إياكم أخي الكريم، بارك الله فيك.

- و هل بقي بعد الأربعين يوماً أحدٌ من الإفرنج لم يُبذل ما عليه من الفدية؟

- لقد دفع صاحبُ الرملة ثلاثين ألف دينارٍ عن ثمانية عشر ألف من الفقراء، و ابتذل أمراءٌ آخرون عن فقراء آخرين، و لكن رغم ذلك بقي سواهم خلقٌ كثيرون لا يُعدُّون و لا يُحصَوْن لم يقدروا على افتداء أنفسهم؛ فافتدَيتُهُم أنا من مالي و لم أعتبرهم مماليك رغم ما اتُفِقَ عليه سابقاً.

- جزاك الله خيراً مولاي السلطان، نعمَ ما فعلت.. و كيف قمتَ بترتيب عملية استلام الأموال من الإفرنج على ما استقرَّ عليه الصلح؟

- أقمتُ على كلِّ بابٍ من أبواب المدينة أميناً من الأمراء يجبي تلك الأموال؛ و لكن بعضهم -سامحهم الله- استعملوا الخيانة و لم يؤدوا الأمانة بعد إذ اقتسموا الأموال فيما بينهم، ثم تفرَّقوا أيْدي سبأ دون أن يظهروا بعدها.

- سامحهم الله، بئس ما صنعوا.. و كيف كان دخولكم المدينة؟

- بعدما كُتِبَ الصلح بما اتَّفقنا عليه من الشروط، دخلنا القدسَ يوم الجمعة قبل وقت الصلاة بقليل في السابع و العشرين من رجب، و لكنَّنا لم نقدر على إقامة الجمعة لضيق الوقت و سوء حالِ المسجد الأقصى؛ فشرعنا فورَ دخولنا في تنظيف المسجد و قبة الصخرة من الأقذار و الأنجاس، و أزلنا ما كان فيهما من الصلبان و الخنازير- أكرمك اللهُ و إيانا.. و كان الداويةُ-

لعنهم الله- قد بنوا لهم مباني غرب المسجد ليسكنوها، و أقاموا فيها هُري و مُستراح و غير ذلك، و أدخلوا قسماً من المسجد في أبنيتهم، فأمرتُ بإعادة الأبنية إلى ما كانت عليه في الماضي، ثم أمرتُ بترخيم المسجد و تزيينه و تزويده مع قبة الصخرة بالمصاحف و الرُّبَع.. كما سمحتُ لمن شاء من الافرنج أن يمكث في المدينة، و دعوتُ المسلمين لإعمارها و السكن فيها بعد أن كادت تُفرغ من الناس، و أخيراً أطلقتُ من بقي من الأرامل و اليتامى و الشيوخ دون فداء شفقةً عليهم، و منحتُ بعضهم ما تيسر من مالٍ ليستعينوا به في سفرهم.

- و ما خبرُ كنيسة القيامة؟ بلغني أنَّ بعض أمرائك أشار إليك بهدمها!.

- بلى.. قد حدث أن طلب منِّي أحد الأمراء هدمَ كنيسة القيامة لقطع أمل الافرنج في العودة؛ و لكنَّني وبَّختُه و رفضتُ ما طلبَه رفضاً قاطعاً.

- و لم ذلك يا ترى؟

- لقد ذكَّرني أحدُهُم بأمرِ الخليفة عمر بن الخطاب -رضوان الله عليه- لَّما فتح بيت المقدس في صدر الإسلام و أقرَّ الرومَ على الكنيسة و لم يعزم على هدم بنيانها، فكان ذلك زيادةً على تسامحي كفيلاً بإعراضي عن أمر هدمها و إقراري للنصارى عليها.

- لله درُّك مولاي السلطان!.. و إني سائلُكَ عن خبرِ تحويل المنبر من دمشقَ إلى القدس؟

- و أنا مُجيبُك إن شاء الله.. فخبره أنَّ الملك العادل نور الدني محمود ابن زنكي -قدَّس الله روحه و أنار قبرَهُ- أمرَ في أيامه بأن يُعمَل منبرٌ و شدَّد على النَّجَّارين المبالغة في إتقانه وتحسينه و تزيينه، و قال: «هَذَا قَدْ عَمِلْنَاهُ لِيُنْصَبَ بِبَيْتِ المقْدِسِ!»، فعمل النَّجَّارون المنبرَ في سنين عدَّة حتى أنَّه لم يُعمل في تاريخ الإسلام مثلُه. و لكن الله تعالى شاء أن يتوفى الملك العادل نور الدين إلى رحمته قبل فتح القدس الذي كان يأمل أن يكون على يديه.. و لما فَتَحَه الله في عهدنا أمرتُ أن يُصنع للمسجد الأقصى منبر، فقيل لي: «إنَّ نور الدين محمود كان قد عمل منبراً بحلب»، فأمرتُ بإحضاره في تلك الساعة، و قد حُمِلَ من حلب و نصبناهُ بالأقصى و لله الحمد.

- سبحان الله! إنَّ بين عملِ الملك نور الدين للمنبر و حمله لَمَّا فُتِح الأقصى ما يزيد على العشرين عاماً، و لا ريب في أنَّ ذلكمن كراماته و حسن مقاصده رحمة الله عليه!!

- صدقت و الله.

- و الآن حدِّثني عن صلاة الجمعة الأولى في الأقصى و خُطبتِها.. أظُنُّك قد خطبتَ بالمسلمين بنفسك كما بلغني؟!

- كلا ليس الأمرُ كما بلغَكَ.. و إنما الذي باشر الخطبةَ هو مولانا الشيخ القاضي مُحيي الدين بن الزكي بإشارةٍ له منِّي متأخِّرة بعد أذان المؤذِّنين للصلاة وقت الزَّوال، و قد رأيتُ العلماءَ متهيِّئين لها و متهيِّبين منها خشيةَ أن يُدعى إليها أحدُهُم فلا يكون نجيباً؛ فاستعدَّ القاضي لها و تهيَّأ و لبس الخلعة السوداء، ثم صعد المنبر و قد كساهُ الله من الهيبة و الشموخ و العزَّة الشيءَ العظيمَ، و أكرمه بكلمة التقوى و الصَّلاح أجمل إكرام، و كانت الفصاحة و البلاغة و البيان على طرف لسانه، فخطب بالمسلمين خطبةً سنيةً عظيمةً لا يقدرُ على قول مثلها إلى فطاحلة خطباء العربِ الأوَّلون، و كانت طويلةً حتى أخشَعَ الله بها قلوبنا خشوعاً عظيماً، و ذرفت لها أدمُعُ السَّامعين كغير المألوف، و كانت مناسبةً لذاك المقام و لله الحمد و المنَّة .. و لولا طولها لذكرتُ لك منها طرفاً بليغاً يُعجِبُ... مـ.. ما يُبكِيكَ يا أخي؟!

إلى ذلك الحين لم أستطع مقاومة انهمار دموعي و هي تنصبُّ كالشَّلّال على خدَّي ألماً و أسفاً و أنا أستمِعُ لحديث السلطان عن دخولهم القدس الشريف فاتحين مُكبِّرين، و عن خطبة القاضي ابن الزكي و وصفِ السلطان لتلك لأجواء تلك الخطبة التاريخية، و قبلها عن حطِّين، و الـ..

أتدرون ما آلَمَني و تأسَّفتُ عليه؟!.. لقد عُرِضَ أمامي شريط طويلٌ من الأحداث التي عاصَرتُها و عايَشتُها و شاهدتُها في زمن سايكس-بيكو أثناء استماعي لكلام السلطان عن فتح القدس..

كيف لا أتألَّم و أتأسَّف؟! و قد حضرت أمامي أحداث سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية التي كانت تجمع المسلمين تحت راية واحدة بتدبيرٍ من اليهود؛ فتفكك المسلمونَ على إثرها و تنازعوا فيما بينهم، و رُسِمَت حدودٌ وهميةٌ بأقلامٍ صليبيةٍ لازال المسلمون إلى اليوم يؤمنون بها و يتقاتلون في سبيلها، ثم اغتصبَ إخوانُ القردة و الخنازير القدسَ و شرَّدوا المسلمين منهُ بعد أن نكَّلوا بهم و ساموهم سوء العذاب، ثم مدَّ الخونةُ من أمة الإسلام يد العون لأولئك اليهود بدلاً أن يمُدُّوها لإخوانهم في الدين و العقيدة!.

كيف لا أتألَّم و أتأسَّف؟! و كلُّ من دعى إلى الجهاد اتُّهِم بالجنون و الرجعية!.. و من حمل راية قتال اليهود و الصليبيين الجدد سُمِّي إرهابيًا!.. و الخونةُ قد بالغوا في تقديم فروض الطاعة و الولاء لليهود فسُمِّي ذلك «تطبيعاً»!.. و العلماءُ الرَّبَّانيون النَّاصحون قد نُكِّلَ بهم و أُقبِعوا خلف قضبان السجون دون وجهِ حقٍّ!.. و الـحُكْمُ لدى الـملوك و الرؤساء بغير ما أنزَل الله!

كيف لا أتألَّـم و أتأسَّف؟! و أرض سوريا من بلاد الشام المباركة قد باتت مضرب الأمثال لمن يخوض في الحديث عن سفك الدماء و خوض الحروب!.. و أرض العراق قد هاجت فيها الفتن و ماجت، و انسكبت فيها دماء المسلمين و سالت!.. و أراضي المسلمين في الشرق و الغرب تُدنَّسُ بأقدام الأعداء من أمم الأرض!.

كيف لا أتألَّم و أتأسَّف؟!.. و الـ.. و القدسُ لازال محتلاًّ!.. و اليهودُ يسرحون في الأرض المباركة و يمرحون!.. و أراذِلُهم يُدنِّسون الأقصى و ينُجِّسونه!.. و المسلمون في فلسطين عامَّةً إمَّا مُشرَّدون، و إمَّا مُحاصرون، و إمَّا يُهانون و يُذَلُّون، و إمَّا يُقتَّلون!

إنَّ السُّلطان صلاح الدين يُحدِّثني عن الجهاد و موقعة حطين.. و أنا أتذكَّر النكسات و الهزائم و ترك الجهاد!

إنَّه يُحدِّثني عن الأبطال و المجاهدين.. و أنا أتذكَّرُ الخونة و المجرمين!

إنَّه يُحدِّثني عن فتح القدس و تطهيرِهِ من رجس الصليبيين.. و أنا أتذكَّرُ احتلال اليهودِ له و إبادة من فيه من المسلمين!

إنَّه يُحدِّثُني عن العلماء الرَّبَّانيين و المُصلِحين.. و أنا أتذكَّرُ العلماء بصنفَيْهِم: علماء الرحمان المسجونين، و علماء السلطان المفتونين!

و بينا أنا في تلك الدَّوامة من البكاء و الأسف و الأسى، إذا بالسلطان صلاح الدين يُعيد القول عليَّ:

- ما بك يا أخي؟! هلَّا خبَّرتني بما يُبكيك!

كنت أشهق من البكاء لفرط أَثَرِ واقع المسلمين المُعاش على نفسي في زمن سايكس-بيكو و تسلُّط الأعداء على أمة الإسلام، و بالكاد نطق لساني بالقول متأسِّفاً:

- يؤسِفُني مولاي السلطان أنـ..

- ما يؤسِفُك؟!

- مولاي السلطان! قد آن أواني رحيلي، و إنِّي مُخبِرُك بما صار إليه القدس و المسلمون بعدَك، فأرجوا أن تُعيرني مسمَعَكَ مُتفضِّلاً .. فإنَّ الخطبَ جَللٌ و خطيرٌ!

- عجباً منك!.. أأنتَ مُخبِري بالغيب؟!.

- معاذ الله مولاي السُّلطان! و لكن فقط عندي ما أُخبِرُكَ به قبل الرَّحيل.

- إذًا.. تحدَّث فإنِّي مصغٍ لما أنت قائلُه.

- مولاي السلطان! لقد حادَ المسلمون بعدَكَ عن الصواب، و أضاعوا حقوق الله تعالى، وضيَّعوا الأمانات، و ارتكبوا الكبائر و الموبقات، و أضاعَ حُكَّامُهُم و مُلوكُهم الـحُكْمَ بشريعةَ دين الله، و ارتضوا مكانَها شرائع مَن هم مِن دونِ الله، و دانوا لصناديد الكفر و الإلحاد و وَالَوْهُم فجعلوهم أولياء من دون الله، و مكَّنوهم من أموال الرعية و ثرواتها و كنوزها، و أذاقوا الرَّعية صنوف الظلم و القهر و الاستعباد، و حرَّموا حلالَ اللهِ و حلَّلوا حرامَه، و استبدلوا الباطلَ بالحق و الحقَّ بالباطل.. و كَثُرَ في الأمة الـمنافقون بعد أن حورِبَ الصادقون، و تسلَّط الـمُفسِدون بعد أن سُجِن الـمُصلِحُون، و رُفِعَ الخونة و الـمجرمون، و وُضِعَ الـخُلَّص و الصالحون، فلم يبقَ إلا حثالةُ الناس في بلاد الإسلام، و كُلُّ مَن هو في الفسق و الـمُجون و الفجور إمام.. و أمَّا سيفُ الجهاد فقد كُسِر، و في حدودٍ ضيقةٍ من دار الإسلام قد حُصِر، فانهارَت أمتنا و تكالبَ عليها ما لا يُعدُّ من الأمَم، و تداعى الكفَّار إلى قصعتها بعد أن كانت تحوم في القِمَم.. فإنَّا لله و إنا إليه راجعون.

احمرَّ وجهُ السلطان صلاح الدين و اكفهر، و انتفخت أوداجُهُ غضباً، و أبصرتُهُ يقبض بيديه على غِمْدِ السيف بشدَّة حتى خُيِّلَ إليَّ أنه سيضربُني به، و سألني صارِخًا بصوتٍ حادٍّ يبعث الرَّهبةَ في النفس:

- و أرضُ القدسِ التي قضينا عُمُرنا كُلَّه لفتحِها و نجدتِها، و جيَّشنا لها الجيوش و عملنا على دحر عَبَدَة الصلبنا منها، و صلَّينا في أقصاها، و رفعنا الأذان في قُطرِها.. أخبرني كيف أصبحت بعدنا؟!

- ما عساي أن أقول!.. إنَّ القدسَ مولاي السلطان يحكُمُها الـ..!

- مَن يَحكُمُها أخبرني؟!.. الـمسلمون أم الكافرون؟!

- إنَّ القدسَ يحكُمُها الـ.. يحكُمُها اليهود!

تسمَّر السلطانُ في مكانه و كأنَّ الزَّمن قد توقف عند تلك اللحظة، فلم يُحرِّك ساكِنا و ظلَّ ينظر إليَّ نظرةً توحي بالصدمة و الرَّوع.. أما أنا فقد طأطأتُ رأسي تأسُّفاً على الحال، و الدَّمعُ من بين جفوني تترقرق، ثم نظرتُ إلى السلطان و هو يتساءل مُتعجِّباً غايةَ العَجَب:

- اليهود؟!.. الخنازير القرود؟!.. أجبنُ خلقِ الله و أحَطّهم؟!.. أولئك الذين ضُرِبت عليهم الذِّلَّة و المسكنة؟!.. أولئك الملاعين الذين كذَّبوا رُسُلَ الله و قتلوهم؟!.

- أي و الله مولاي السلطان!.. إنا لله و إنا إليه راجعون.

- ويحك.. و ما فعل المسلمون إذًا؟!

- لقد كانوا في أعظمِ ضعفٍ و وَهنٍ، و تنازعوا فيما بينهم حتى ذهبَت ريحُهُم، و ابتعدوا عن كتاب الله تعالى و عن هديِ رسوله.. فلم يكن من أمرهِم تجاه بيت المقدس إلا البلادة و التخاذُل، بل و خان بعضُهُم اللهَ و رسولَه والأمةَ، و تعاونوا مع اليهود الغاصبين، و كـ..

صاحَ السلطانُ و قد تفطَّرُ قلبُهُ من هول المُصيبة:

- يا لِأسفي و حُزني عليكِ يا قُدسُ!.. يا لِأسفي و حُزني عليكِ يا قُدسُ!

- مولاي السلطان! إني راحلٌ و مُفارِقُكَ.. فهل للمسلمين بعدَكَ من وصية؟!

- أما و قد ملكَ القدسَ يهودُ.. فلا أملِكُ إلا أن أقول لهم: الويلُ لكم إن لم ترجعوا إلى رُشدِكُم، و تُمسِكوا بيمِينِكم كتابَ ربِّكُم، و بِشِمالِكُم سيفَ جِهادِكُم..!!!

- فالسلامُ عليكَ يا مولاي السلطان و رحمة الله!

- و عليكم السلام و رحمة الله!

العودة!

خرجتُ مِن الدار السلطانية، ثم مِن دِمشق كلِّها.. و بعدها بلغني أنَّ حُمَّى صفراوية شديدة غشيت السلطانَ صلاح الدين، و أنَّه ظلَّ يشكو من أعراض تلك الحمى أياماً عِدَّة، و قد طالَ الناسَ خلال تلك الفترة من الكآبة و الحزن ما لا يُمكن حكايتُهُ، و ظلَّ الجميعُ مترقباً خبَرَه و حالَه ساعةً وراء ساعة؛ الكبيرُ و الصغير، النساءُ و الرجال، العدوُّ و الصديق..

و ما أن حلَّت ليلة الأربعاء السابع و العشرين من صفر سنة تسعٍ و ثمانين و خمسمائة (589هـ)، حتى وَرَد إلى الناس النبأُ الذي زلزل قلوبَ المسلمين..

أقصدُ نبأَ وفاة الملك الناصر لدين الله، السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب!

نعم.. لقد مات صلاحُ الدين!

مات مَن تملَّك البِلاد بالعدل قبل السيف، و قهر الأعداء بمكارم الأخلاق قبل السياسة.. مات خليفةُ نور الدين و تلميذه، و ناصِرُ الإسلام، و مُحرِّرُ بيت المقدس.

أما أنا.. فلم أملِكْ إلا الاسترجاع و الحوقلة لرحيل ذلك البطل الخالِد!

ثم أكملتُ مسِيري عائدًا إلى زمن سايكس بيكو، إلى زمن الذلة و الخنوع و خيانة الحُكَّام، إلى زمن ضياع الخلافة و تهميش الشريعة، إلى زمن ترك الجِهاد و تداعي الأعداء على الأمة.. إلى الزمن الذي تقرأون فيه أنتم الآن هذه السُّطورَ..!

عائدٌ على أملِ أن تلِدَ الأمةُ في زمن سايكس بيكو مَن يُعيد لها قُدسَها مِن أيدي يهود كما أعادها مولايَ السُّلطان صلاح الدين مِن أيدي النصارى قبل ثمانية قرون و نِصف القرن، و إنَّهُ لأملٌ مُحقَّقٌ بإذن الله، طالَ الزَّمنُ أم قَصُرَ.. و إنَّ غدًا لِناظِرِه قريبٌ!